المقتطف

الجزء الثالث من المجلد التاسع بعد المائة

١ أغسطس سنة ١٩٤٦ — ٤ رمضان سنة ١٣٦٥

المرأة

في ظل الديموقراطية

— ١ —

المرأة عامل من أعظم العوامل المؤثرة في بناء المدنية الحديثة. ولم تكن المرأة في العصور القديمة أقل أثراً منها في العصور المتأخرة. فالقبائل البدائية، وبخاصة تلك التي اتخذت عادات البدو في الارتحال من مكان الى مكان، والجماعات التي عاشت بالصيد، والعشائر التي اتخذت من سلاحها وعضلاتها وسيلة للعيش والحياة والضرب في مناكب الأرض، كل هؤلاء يدينون للمرأة بكثير من أمور دنياهم.

شاركت المرأة الرجل منذ أقدم العصور في العمل، وأخذت بضلع في كل ما يتعلق بالحياة القبلية وحياة الأسرة، وكانت من العوامل الأولية في انتشار جماعات الانسان في بقاع من الأرض، لولا فضلها في العمل، وتدبيرها شؤون الأسرة، لتعذر على الرجل وحده أن يدب فيها أو يكشف عنها. وكانت للرجل ولا شك سلاحاً من أمضى أسلحته، ودرعاً من أقوى دروعه، وحافزاً من أقوى حوافزه، وكفاها أن تكون أول من أنشأ فلاحة الأرض، وأول من اكتشف كيف تلبث الحبة فتثمر في أزمان دورية. فكان هذا بداية الحضارة الزراعية في العالم القديم، وأساسها الأول في العالم الحديث. ولا ريبة في أن

اكتشاف النار ، ووضع أصول الزراعة ، سببان لولاهما لما نشأت المدنيات التي استقرت أول ما استقرت ، على ضفاف الأنهار العظمى .

قال ولز يصف حال الجماعات الاولى :

«على أن أكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الرجل البدائي لم يكن يفهم الشهامة ولا النخوة او النجدة معنى . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الا أسلحتهم ، وهم على استعداد لدفع الطوارىء ، ولا شك في أن العناية بالاطفال ايضاً كانت من نصيب النساء » .

ثم قال : « كانت هذه الحال سبباً في أن يذهب البعض الى القول بأن النساء كنّ أول من بدأ في فلح الأرض . وهذا المذهب لا تدعمه المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب وسواد الاكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لان الرجال كانوا يخرجون دائماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد أن يكون النساء هنّ اللاتي لاحظن ان الحبوب تنمو في الأمكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أخر ، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الأرض قرباناً لآلهة من الآلهة عسى أن يعوض عليهم ما بذروا أضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في أن أول طور من الأطوار التي تدرجت فيها الزراعة كانت عبارة عن استلاب محصول بذوة الغير . فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرعاة » يرجح أن يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الاول » .

ولقد تابعت المرأة خطى التطور الذي لازم الرجل في جهاده الشاق نحو الكمال والمدنية . فاذا كان الرجل قد ضحى بالكثير من جهده العضلي والعقلي في بناء دعائم الحضارة وتوثيق روابط المجتمع ، والكشف عن أسرار المجهولات فقد ضحت المرأة بجهدٍ نفسي وأسرفت في الانفاق من روحها وعواطفها وانفعالاتها ، ما قد يتضاءل أمامه ما أنفق الرجل من جهد العمل والانتاج . واذا كان التاريخ على ما يقول « هيني » ليس سوى الأطوار المختلفة التي خلقها الروح الانساني على مرّ العصور ، فان في ثنايا تلك الأطوار من روح المرأة قدراً يساوي ما فيها من روح الرجل ، إن لم يكن أكثر ، اذا لم نخشَ المبالغة .

ولقد عانت المرأة من عنف الرجل طوال أحقاب لا يحصيها العدّ ، ما لو استطعنا أن نقدره ، لفاق جهدها في ذلك وحده ، كل ما تقدر الرجل من جهد العمل على إقامة دعائم المدنية والحضارة . فلو لم تخصّها الطبيعة بتلك الخواص النفسية الفذة ، وذلك الادراك العميق لمختلف نزعات الرجل ، وتلك القدرة العجيبة على اختيار مواقف الكرّ حيث يجدي ، والفرّ حيث يفيد ، والإقدام حيث يكون الإقدام نصراً ، والدفاع حيث يكون الإقدام هزيمة ، مدفوعة الى ذلك بغريزة فيها تدفعها الى حفظ ذلك النوع الذي يطلق عليه الاحيائيون اسم « الانسان العاقل »[1] اصطلاحاً ، لظل ذلك الكائن البدائي في جحوره المظلمة ، وكهوفه المرطوبة ، وغاباته الموحشة ، حيواناً لا يفرقه عن بقية الحيوان غير انتصاب القامة .

ذلك بأن الطبيعة قد وجهت غريزة الرجل الى العمل للحاضر وحده ، ولكنها خصت المرأة بغريزة العمل للمستقبل . تحمل وتلد وترضع وتربي وتعلّم ، وتحارب زوات الرجل بالضعف إذا صلح ، وبالقوة إذا حزب الأمر ، موجهة كل ذلك الجهد الى الاحتفاظ بشيئين : الأسرة والولد . الأسرة للحاضر ، والولد للمستقبل . وليس لها من كل ذلك غنماً ولا ربحاً . ومن ثمّ كان لها تلك الغرائز النبيلة السامية .

* * *

لم يصلنا من تاريخ المرأة الاجتماعي في العصر المصري القديم شيئاً يتيح لنا البحث في شئونها بحيث نحدد مكانتها في ذلك المجتمع تحديداً يرضي التاريخ الصحيح . ولكن يكفي أن نعرف انها بلغت من المكانة في ذلك المجتمع ما لم تزل له مثيلاً في الحضارتين اليونانية والرومانية . فقد بلغت في مصر القديمة مرتبة الملك ، وكفى بذلك دليلاً على انها بلغت في مصر ، وفي فجر التاريخ البشري ، منزلة السلطة العليا في دولة استبدادية . لا أثر للديموقراطية فيها . ولم تبلغ في الحضارة اليونانية من الأثر العملي ما بلغت في الحضارة الرومانية . ومن أعجب حقائق التاريخ ، أن تتبوأ المرأة أعلا مدارج المجتمع في حكومة استبدادية كحكومة مصر القديمة ، وتتوارى من أفق المجتمع كلية في بلاد اليونان ، التي ورثنا عنها النظم

(١) Homo sapiens

الديموقراطية الحديثة . ولا شك في انها كانت ذات أثر بالغ في حياة الرومان ، حتى لقد وجهت سياسة الدولة في عصر أوغسطوس ، أول قياصرة الرومان ، زمناً خصّ بأنه شهد نشأة الامبراطوريات العظمى في العالم .

وهكذا كان للمرأة أثر بيّن في تاريخ الانسان في عصور همجيته وفي عصور تمدينه إلى وسوف يكون لها في المستقبل أثراً أعظم ، وتاريخاً أروع وأخلد .

* * *

لما سقطت الدولة الرومانية ، وحطّمها الهمج الذين هبطوا أوربا من خلج آسيا ، وورثت أوربا عنهم نظام القطائع ، انكفأت المرأة بغريزتها راجعة الى تلك الحدود التي لزمتها خلال عصور الهمجية الأولى ، ونزلت عن تلك المكانة السامية التي تربعت على عرشها في بعض المدنيات القديمة . ولقد ظلت المرأة على هذه الحال حتى كانت العصور الحديثة ، فأخذت في أوربا شيئاً من مكانتها التي بلغتها في مصر القديمة ، إذ تربعت على عرش الملك ، ودنّ صوتها الفرد في خلج التاريخ مرة أخرى .

عندما أدركت أوربا الثورة الصناعية ، ولقّنتها مبادىء الحرية الديموقراطية ، وعاشت المرأة الرجل في التعليم ، تطلّعت الى حقوقها السياسية ، وأخذت تعمل جاهدة في سبيل تحقيقها لتكمل بذلك ذاتيتها . فلئن كانت المرأة قد حققت ذاتها وأثبتت وجودها في ميادين كثيرة كالأمومة والزوجية والأسرة والجهاد والحرب والسلك ، فإنها ولا شك تجنح اليوم إلى ان تكمل ذاتيتها بأن يكون لها في ميدان السياسة والاجتماع والعمل ، تلك الحقوق التي حرمتها خلال العصور الغابرة . تلك الحقوق التي لا ينكرها الشرع ولا تأباها الطبيعة .

* * *

ان الكلام في حقوق المرأة حديث جديد في المدنية الاوربية . فبعد ان سقطت المرأة عن عرشها المتواضع الذي تربعت من فوقه في العصر الروماني ، غشت عليها غشاوة القرون الوسطى ، فقبعت راضية ، حتى أدركتها العصور الحديثة ، فهبت من غفوتها تطالب بحقوقها السياسية ، تلك الحقوق التي بلغت في روسيا السوفيتية ، ولأول مرة في تاريخ الدنيا ، مبلغ الحرية التي ساوت فيها الرجل مساواة تامة . أما بداية جهادها في سبيل ذلك ، فيرجع الى ما

قبيل الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، إذ بدأت تحتل مشكلاتها العالمية مكاناً في آداب الأمم الغربية .

غير ان جهاد المرأة في ذلك العصر كان جهاداً سلبيًّا ، دليلنا عليه أن كثيراً من دعاة الكتّاب والفلاسفة قد خصوها فيما كتبوا ببحوث وإشارات عبرت عن أن في جوّ المجتمع مشكلة هي مشكلة المرأة ، ومسألة معقدة هي مسألة الشطر الآخر من الجمعية البشرية .

ومن أعجب العجب ان « جان جاك روسو » ، على كثرة ما أشاد في كتابيه « العقد الاجتماعي » و « أميل » الذي كتبه في أصول التربية ، واستمساكه فيهما بنظرية أن الحرية حق طبيعي للانسان ، لم يذكر أن للمرأة حقًّا يقال له « الحق السياسي » . وجاراه في ذلك بقية الكتاب الذين نحوا نحوه واتبعوا مذهبه . ذلك في حين أن مذهب هؤلاء جميعاً هو أن الحق السياسي حق طبيعي لا يسقط عن الانسان ولا يسلب منه حتى ولو تعاقد هو على حرمان نفسه منه ، بل قالوا ان التصويت حقٌّ عام لكل أفراد الجمعية ، وانه جزء متمم للحرية فلا يسلب ولا يتنازل عنه أو يحرم منه فردٌ ما من الأفراد ، ذلك بأن الحرية شيء طبيعي ، وكذلك تكون متعلقاتها وتوابعها .

أليس عجيباً أن أولئك الذين يقولون بتلك الحرية الواسعة ويقدّسونها ، وينزلونها هذه المنزلة ، التي لا شك في انها صحيحة من كل وجه ، هم بأنفسهم الذين يمضون في بحوثهم قائلين بأن يظل نصف الراشدين من مجموع الأمة عطلاً من هذه الحقوق ، وان يحرمن النصف الآخر من التمتع بها ، فيطغى على حقهنّ فيها ، فلا يجعل لهنّ نصيباً من الاشراف على التشريعات التي تتعلق بأموالهنّ وأحوالهنّ الشخصية ، بل هي قد تنصب على كل أقدارهنّ في هذه الحياة الانسانية ؟

لقد كتب « روسو » عن المرأة وفصل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولكن لم ينزل كاتب من كتّاب القرن الثامن عشر الى ذلك الدرك الذي انحدر فيه « روسو » اذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . غير انه عقب على ذلك بقوله :

« ينبغي أن يكون تعليمهنّ متصلاً بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة ، وموضعاً لحبه واحترامه ، وتربي أولاده صغاراً ، وتعنى بهم كباراً ، وتبذل لهم النصح ، وتفهمهم

بالعطف حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة . كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات ، يجب أن تتعلم المرأة من الصغر » .

بل ان « روسّو » قد ذهب في تقييد المرأة إلى أبعد من ذلك . ذهب الى وجوب تقييدها دينيًّا ، فلم يجعل لها حق اختيار العقيدة التي تتصل من طريقها بباوئها ، وقضى بوجوب ان لا يكون لها دين غير دين زوجها ؛ فهي مقيدة به محصورة في حدوده . شأنه في ذلك شأن « فلوطرخوس » في العصر الروماني ، وقد قضى كلاهما بأن على المرأة أيضاً أن تعمل على غرس بذور دينها ، الذي هو دين زوجها ، في عقل بناتها ، وإلاّ فإنها تكون قد قصرت في أداء واجب من أقدس الواجبات . قال :

« حتى ولو كان ذلك الدين زوراً محضاً ، فان عواطف المرأة وبناتها ، وحفظهن عهنّ لذلك الشرع الطبيعي ، تكون عند الله وسيلة لغفران الخطيئات . ومن أجل ان النساء غير قادرات على ان يحكمن على الأشياء حكماً ذاتيًّا ، فعليهنّ أن يخضعن لاحكام آبائهنّ وأزواجهنّ خضوعهنّ لحكم الكنيسة » .

لم يشذّ عن هذه الطريقة التي اتبعها كل كتّاب الثورة الفرنسية غير الفيلسوف « كوندورسيه » ، فقد ظهر في بعض كتاباته ظهرت له سنة ١٧٨٧ ، وتكاد تكون من منسيّات ما كتب ، إلى القول بأنه من المستحيل أن تستقر حقوق الانسان على قاعدة ثابتة ، ما لم يُعترف بهذه الحقوق للمرأة ، وإن كل الأسباب التي أدّت إلى الاعتقاد بأن لكل رجل الحق في أن يكون له صوت مسموع في حكم بلاده ، هي الأسباب التي تحملنا على إضفاء هذه الحقوق على النساء . قال :

« وعلى الأقل للواتي هنّ أرامل أو غير متزوّجات » .

ولو لم يقيّد « كوندورسيه » رأيه بذلك القيد الذي هو أثر من آثار الفكرة السائدة في عصره ، إذاً لكان أول رائد دافع عن حقوق المرأة في العصر الحديث .

ولا ريب أن موقف كتّاب مرنسا من المرأة في ذلك العصر كان فذًّا غريباً ، إذا تذكرنا « ماريا تريزا » والملكة « كاترين » في روسيا ، والمكانة العليا التي حظيتها كل منهما في سياسة بلادها خاصة وسياسة أوربا عامة . أضف الى ذلك المنزلة السامية التي احتلتها نساء موهوبات

في الاجتماع والأدب والبحوث العقلية وفي الحياة السياسية ، منذ انقضاء عصر لويس الرابع عشر . ناهيك بما كان للمرأة من موضع في إلهاب روح الثورة في فرنسا ، وما كان لها من تضحية فيها . وأية تضحية أعظم وأنبل من تضحية مدام « رولان » و « شارلوت كورداي » وأولاهما من الموهوبات في السياسة والأدب ، والثانية من القديسات . كانت الأولى من أعضاء حزب « الجيروند » المبرزين فيه ، وكانت الثانية من المضحيات اللواتي تذكرهن فرنسا إلى جانب « جان دارك » ، وقد سقطتا على المقصلة مع رجال من أبرز رجال العصر .

ناهيك بما عليه كثير من المؤرخين الذين يعتقدون انه ما من كاتب استطاع أن يزن حوادث ذلك العصر بميزان أدق أو عقلية أرحب أو أفق أوسع من مدام « ده ستايل » . كذلك نعلم ان انساناً مّا من الذين عاصروا الثورة ، لم يستطع أن يلهب بعواقبه نيران الحقد والغضب امتساكاً بوجهة من النظر السياسي ، فكان أعنف وأصبر على مكاره ذلك الموقف النكد من الملكة « ماري انطوانيت » ، وهي بشهادة الجميع من أكثر اللواتي سقطن على المقصلة استنارة فكر واستقامة رأي وثبات جنان .

قيل إن نابليون قابل ذات يوم أرملة « كوندورسيه » وكانت من زعيمات الثورة تخاطبها محتداً وفي نبراته نغمة الآمر الذي لا ينتظر ممن يخاطب جواباً : مدام — إني لا أحب أن تتحكم المرأة في السياسة — فأجابته على الفور : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي في بلد تحتز فيه رءوس النساء ، أن يكون لهن الحق في أن يسألن عن السبب في ذلك !

ولا يجدر بنا أن نغفل في هذا المقام عن ذكر ما كان للمرأة من أثر في عصر النهضة في أوربا . ولنضرب لذلك مثلاً بما كان لتعليمهن من أثر في حياة ذلك العصر .

وأول ما نذكر منهن ، بل أول من تتخذ منهن مثالاً يحتذى وقدوة يتأسى بها « كاترينا سفورزا » (١٤٦٢ — ١٥٠٩) فقد نشئت بعناية جدتها الدوقة « بيانكا ماريا فسكونتي » . وكانت « بيانكا » من مشهورات أهل زمانها . ففي كل المعارك التي اشتبك فيها زوجها « فرنسكو سفورزا » كانت مساعده الأول ونصيحه الأمين ، بل كانت في بعض الأحايين قائداً مقداماً مرناً ، تقاد الجيوش في حومة الوغى وتحدوت بهم الى المطامع تناضل نضال النمرات . وكانت الى جانب هذا معبودة الجماهير لنباهة ذهنها وعفتها وحدبها

على المظلومين والضعفاء، وحنوّها على الذين أُخفي عليهم الظلم، وفصل بهم الاضطهاد. كانت حمامة السلام ورسول الشفقة ويد الرحمة، كلما استعرت نيران الخصام واستيقظت روح العداء، وفشت الاخطاء وعمت التعاسة. وبهذه الصفات علّمت «كاترينا مفورزا» الحكم كيف يكون.

تلقت «كاترينا» من التعليم قسطاً وافراً، على النهج الذي اتبع في ذلك العصر. وكانت التقاليد القديمة قد أخذت تنهار قبيل عصرها، وتحل محلها تقاليد جديدة. فان نساء العصر الاول — أي عصر ما قبيل النهضة — كنّ محجوبات عن الاشتراك في معضلات الحياة العامة، والأخذ بقسط في معالجة مشاكل العصر، على كثرة ما كان فيه من مشكلات. فكان من حظ «كاترينا» أن يقضي قبل عصرها على هذا التقليد، فيأخذ النساء بضلع وافر من الاشتغال بشئون السياسة والحرب، وتدبير أمور الدويلات والاحتكام في كثير غير يسير من الظروف التي عدّلت وجه التاريخ الحديث.

بلغت العناية بأمر الثقافة النسوية في عصر «كاترينا مفورزا» أعظم مبالغها. فان سيدات ذلك العصر، على ما يقول ثقات المؤرخين، قد تلقين من العلم ومن أساليب التربية والتنشئة ما قد يندر أن يتهيأ لمثيلاتهن من بنات عصرنا هذا. فقد برزن في الآداب القديمة وفي اللغتين اليونانية واللاتينية، قراءة وكتابة وتفقهاً، كما أعطين قسطاً وافياً من العلم بآداب عصرهن، في بلادهن وفي غيرها من البلاد، وتثقفن في الفن والعلم والموسيقى والرقص وركوب الخيل والألعاب الرياضية.

ومن مشهورات ذلك العصر «سيسيليا جونزاجا» و«إيولينا مفورزا» عمة كاترينا مفورزا، وبعد ذلك بسنين قلائل اشتهرت «ايزابلا دسطه» و«إيزابتا جونزاجا»، وكل منهن مثال يحتذى في الثقافة الواسعة والقدرة الشاملة والعبقرية الكاملة. فقد تعلم ان «إيولينا مفورزا» وكانت في الثانية عشرة من عمرها، قد ألقت خطبة من تأليفها باللغة اللاتينية، ترحيباً بالبابا «بيوس الثاني» عند ما حلّ ضيفاً على أبيها. وفوق ان «سيسيليا جونزاجا» كانت تكتب اللغتين، اليونانية واللاتينية، وتقرؤهما وهي في الثامنة

(البقية في آخر باب المكتبة)

نور الدين الشهيد

أيها السادة : ان كنتم قد سلكتم الى هذه القاعة ، طريق العصرونية قادمين من هنا ، أو على قبر صلاح الدين آتين من هناك ، أو مررتم على مدرسة التجارة ، أو جزتم سوق الخياطين ، فاعلموا أن في هذه المسالك التي سلكتموها ، والدروب التي جزتموها ، لأحاديث خالدات من سيرة الرجل الخالد الذي أقبلتم هذه العشية لسماع حديث عنه ، نور الدين ونور الدين .

ففي دار الحديث في العصرونية ، في جدرانها القائمة التي تحدّرت من أعاليها القرون الطوال ، وفي ماضيها الفخم الرائع ، وفي مدرسة التجارة ، تلك التي كانت فيما مضى البيمارستان النوري أعني المستشفى العظيم والمدرسة الطبية الكبرى التي أنشأها نور الدين يوم كان الغرب يتيه في أودية الظلام ، وعلى قبر صلاح الدين خليفة ابن زنكي ، وعلى ذلك الحديث المحفوف بالهيبة والجلال ، الماثل في سوق الخياطين الذي يحدث وهو صامت حديث النبل والمداراة والاصلاح والنصر المؤزر والبطولة النادرة والعبقرية والخلود ، في كل ذلك بإعادة محاضرات هي أبلغ وأجل مما أنا محاضركم به ، محاضرات كلما مرّ الزمان وتقادم العهد ازدادت عظماً وجلالاً لا يبلى جدّتها التكرار . ولا يذهب بهاءها كرّ الأعصار .

فبم أيها السادة تكون عظمة الرجال ؟ إن كانت في عمق المواهب ونبل الخصال ، أو كانت في عظم الآثار وجلائل الأعمال ، أو كانت في فضائل النفس ونقاسة الخلال ؟ فان نور الدين عظيم في مواهبه السامية ، وخصاله وآثاره الباقية وأعماله ، وفضائل نفسه ونقاسة خلاله ، عظيم في السلم وفي الحرب ، عظيم في العلم وفي العمل ، عظيم في تواضعه ورفعته ، هو من طراز قلّ أن حظيت بمثاله أمم الأرض ، هو أحد الخمسة الذين لم تملك مثلهم أمة غير المسلمين ، ولم يملك المسلمون مثلهم . أبو بكر ، وعمر ، وابن عبد العزيز . ونور الدين ، وصلاح الدين ، رضي الله عنهم أجمعين .

(١) ألقيت في دار الحديث النورية بدمشق

أصله — ولد نور الدين سنة إحدى عشرة وخمسمائة للهجرة من أصل تركي ، وهو ابن زنكي آق سنقر ، وكان جده آق سنقر هذا ، مملوكاً تركيًّا لملكشاه السلجوقي ، أحد سلاطين الدولة السلجوقية العظام ، حظي بثقته فأصبح من أمرائه المقرَّبين لديه . ومن خواصه الآثيرين عنده ، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته وزاد قدره علوًّا الى أن صار يحافه ويثق به ، فولاه مدينة حلب وأعمالها وحماه ومنبج والملاذقية ، وأراد بذلك أن يبعده عنه ويأمنه . قال ابن الأثير : ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بلقب قسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لا تعطى إلاّ لمستحقيها . ولم يكن ابنه عماد الدين زنكي أبو نور الدين ، بأقلّ منه ذكاءً وعلو همةٍ وشجاعةً وطموحاً . ويكفيه فخراً أنه مؤسس الدولة الأتابكية ومن الأمراء المشهورين بالحزم والاستقامة ، وكان ذا يد طولى في محاربة الصليبيين والثبات أمامهم وحرمهم في كثير من الميادين ، وقد اشتهر بصفات كريمة كالعدل بين الرعية والوفاء والرحمة والشفقة وبُعد النظر في سياسة الملك ووفرة الذكاء والهيبة وحب الخير والصدقات . هذا الى جانب همته وطموحه ومعرفته قدر الرجال وحبّه للاصلاح وشجاعته وإقدامه في الحروب وساحات الجهاد ، ولقد تسلّم زمام الحكم والأمر فوضى ، وبلاد الشام بهٌ مقسّمٌ بين عدّة من الأمراء يتحاربون ويتقاتلون لينال أحدهم من الآخر قطعة من الأرض يضمها الى ملكه الصغير ، بينما كان الصليبيون يفتكون بالناس . ويشحنون المدن الاسلامية ويدمرونها ويذيقون أهلها أنواع العسف والجور والبلاء والعذاب ، فاستطاع زنكي بعقله الكبير ودهائه وحسن تدبيره أن ينقلب من أمير صغير للوصول الى ملك يحكم قسماً كبيراً من سورية الشمالية ويقيء جبهة منيعة أمام الصليبيين وأن يهاجمهم ويردهم عن كثير من المدن التي استولوا عليها ، ولولا همته وإخلاصه لكان من الممكن أن يجتاح الصليبيون سورية كلها ويثبتوا فيها وينتقلوا منها الى البلاد الاسلامية الأخرى . ولقد كان من حسن حظ الاسلام أن يخلف زنكيًّا ، بطل عظيم وملك كبير هو نور الدين الذي كانت سيرته وما تزال نبراساً يهتدي به المخلصون .

منشؤه — نشأ نور الدين في حجر أبيه وفي كنفه ، كما نشأ أقرانه وأبناء الأمراء ، فتعلم القرآن الكريم وحفظه ، وأتقن قواعد العربية والفقه ، وتلقى العلوم على مشهوري علماء عصره ، وقرأ تاريخ الأمم الاسلامية وسير أبطالها الخالدين ، وكان ذا ذكاء وافر ، وجلد على الدرس والتحصيل ، راغباً في معالي الأمور عازفاً عن وضيعها ومنسافها ، وكان يحضر مجالس أبيه ويصغي الى ما يدور فيها من توجيه لسياسة الدولة ويدلي فيها بآراء صائبة يسر بها أبوه وتقر به عينه ، وكان أبوه ذا عناية خاصة به ، يطلعه على ما خفي عليه من أمور

الحكم ويبين له أقوم الطرق فيه ، ويدربه عليه ، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين وهو عاصر جهز أخذ خاتم والده وهو ميت من أصبعه وجمع جنوده وركب من ساعته الى حلب فملكها واستقر فيها ، وفي سابع يوم من استقراره فيها بلغه أن بيموند صاحب انطاكيه خرج قاصداً حلب ، وأغار على ضواحيها وعاث فيها فساداً وكان الناس آمنين ، فقتل وسبى خلقاً عظيماً فأرسل اليه نور الدين جيشاً غلبه ودحره واستنقذ كثيراً من الأسرى . وهاجم بعض بلاد الصليبيين واستولى عليها ، ولا ريب أن دفاع نور الدين هذا ، في اليوم السابع من توليته ، دلنا على بعد همته ، وقوة عزيمته ، واخلاصه في رفع شأن مملكته وورد من تحدثه نفسه بالنيل منها .

وقد قضى حياته كلها وهو في حروب دائمة مع الصليبيين ، كان النصر حليفاً له في أكثرها وأخافهم وطردهم من أكثر المدن الاسلامية التي استولوا عليها ، ولا يسمح لنا الوقت يا سادتي بذكر كل وقائعه ووصف بلائه الحسن فيها لأن ذلك يحتاج الى مجلدات ضخام ولكني ذاكر لكم بعضها لتعرفوا مقدار شجاعته وقوة نضاله .

أشهر وقائعه — من أشهر وقائعه وقعة « آنب » التي كانت في صفر عام ٥٤٤ إذ حشد فيها الصليبيون حشداً كبيراً ، فذهب اليهم نور الدين في ستة آلاف فارس وقابلهم فتال الأبطال وهزمهم وصرع أميرهم البرنس وهو أبو بيموند الذي سبق ذكره وكان مشهوراً بشدة البأس وقوة الحيل وكثرة السطوة وبغضه الشديد للمسلمين فقطع نور الدين رأسه وغنم غنائم عظيمة وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في هذه الوقعة على حداثة سنه ما تعجب منه الناس واستطاع نور الدين في واقعة أخرى أن يأسر جوسلين Joselyn الذي كان من شياطين الصليبيين وأبطالهم وأكثرهم عداوة للمسلمين ، وكان أسره من أعظم النعم على المسلمين ، وأصيب الصليبيون بفقده — كما يقول العماد الكاتب — وعظمت المصيبة عليهم به وخلت بلادهم من حاميها وحافظها .

ومن أعظم وقائعه افتتاح دمشق والاستيلاء عليها ، وقد استولى على حارم وبانياس بعد معارك طاحنة أبلى فيها أحسن البلاء وافتتح حصون الفرنج الشمالية واحداً بعد واحد . ومن أعظم وقائعه فتح مصر أيضاً بعد حروب عداد . إذ أن جيوش الصليبيين هاجمت مصر وحاصروا القاهرة فدافع المصريون عنها دفاعاً عنيداً بعد أن رأوا ظلم الصليبيين وقتلهم الناس وسبيهم النساء . ثم صالحهم هلوز صاحب مصر على مليون دينار خوفاً من نور الدين ، وكان خليفة مصر العاضد قد أرسل في هذه الأثناء الى نور الدين يستغيث به ويطلب منه النجدة وأرسل اليه في الكتب شعور النساء وقال له هذه شعور نسائي يستغثن

لك فأرسل اليه نور الدين جيشاً جراراً غلب الصليبيين وقتل عساكرهم واستولى على البلاد المصرية .

شجاعته — ولقد كان نور الدين في كل وقائعه وحروبه بطلاً مغواراً وفارساً مقداماً ، لا يعرف الجبن ولا الهلعة يقول عنه العماد الكاتب : كان في الحرب ثابت القدم حسن الرمي صليب الضرب، يقدم أصحابه ويتعرض للشهادة وكان يسأل الله تعالى أن يحشره في بطون السباع وحواصل الطير ويقول عنه ابن كثير : كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة لم ير على ظهر فرس قط أشجع ولا أثبت منه . وقال نور الدين عن نفسه : إذا كان معي ألف فارس فلا أبالي بهم — أي بالاعداء — قلوا أو كثروا، ووالله لا أستظل بجدار حتى آخذ بثأر الاسلام وثأري. وقال عن نفسه أيضاً : قد تعرّضت للشهادة غير مرة فلم يتفق لي ذلك ، ولو كان فيّ خير لي عند الله قيمة لرزقنيها والأعمال بالنية . ولقد حدث في إحدى الوقائع أن تجمع الأعداء وزحفوا على المسلمين والتقى الجمعان فنشل بعض جنود الطليعة واندفعوا وتفرّقوا بعد الاجتماع وانقضوا عن نور الدين فبقي ثابتاً في الميدان مع عدد يسير من الشجعان وأطلقوا على العدو السهام فقتلوا منه عدداً كثيراً فولى الأعداء منهزمين خوفاً من كمين يظهر عليهم من جيش المسلمين ، ونجا نور الدين وعاد إلى مخيمه سالماً . ومما يدل على شجاعته وجرأته أن مخاضة في دجلة اعترضته في إحدى حروبه فاستسهل خوضها ، قال راوي القصة : سار أمامنا دليل ركابي وهو يقطع دجلة ونحن وراءه كخيط واحد لا نميل يميناً ولا يساراً حتى اجتزنا الماء بحالنا وأثقالنا وخيلنا وبغالنا وجمالنا ، فاستعظم أهل تلك البلاد عملنا وما خطر ببالهم أنا نعبر بتلك مراكب فتكلموا في المصالحة .

ولقد كان نور الدين محبّاً للجهاد في سبيل الله والذود عن بيضة الاسلام وإنقاذ المسلمين من شر الحملات الصليبية المتدفقة كالسيل ، وقد نذر حياته للجهاد والدفاع عن الاسلام وبلاده . نزل مرة بحمص الخشب وأرسل الى أمير تلك البلدة يقول : اني ما قصدت بنزول هذا المكان طلباً لمحاربتكم وإنما دعاني الى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله وله الحمد من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد الصليبيين وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا أنتصر لهم مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أموالكم . وصار مرة الى الموصل فأرسل له أميرها يقول : إن هذه البلاد للسلطان ولا سبيل لك اليها . فأجاب الرسول قائلاً : قل لصاحبك أنك قد ملكت النصف من بلاد الاسلام وأهملت الثغور وبليت أنا وحدي بأهجم الناس الفرنج فأخذت بلادهم وأسرت ملوكهم

فلا يجوز لي أن أتركك على ما أنت عليه إذ يجب عليّ القيام بحفظ ما أهملت من بلاد الاسلام وإزالة الظلم عن المسلمين . وعاد من الموصل الى الشام بعد عشرين يوماً تسأل عن سبب إسراعه في العود فقال : يعنيني أنني هناك لا أكون مرابطاً للعدوّ وملازماً للجهاد . وجرى في مجلسه مرة ذكر طيب دمشق ورقة هوائها وجمال أزهارها فقال : إن حب الجهاد يسليني عنها فما أرغب فيها .

ايمانه الصادق — وكان يجاهد بعزيمة لا تعرف النصب ، وهمة لا تدري معنى الراحة وإيمان راسخ واعتقاد بالله متين ، وكان يستعين كثيراً بهذا الايمان في جهاده ويعدّه السبب الأول في النصر والغلبة . يروي عنه العماد الكاتب انه لما التقى الجمعان في موقعة حارم ، انفرد تحت التل وسجد لربه عزّ وجلّ ومرّغ وجهه وتضرّع وقال : يا رب ، هؤلاء عبيدك وهم أولياؤك وهؤلاء عبيدك وهم أعداؤك ، فانصر أولياءك على أعدائك ، إيش فضول محمود — اسم نور الدين — في الوسط ؟ وقال أيضاً : اللهمّ انصر دينك ولا تنصر محموداً ، من هو محمود الكلب حتى ينصر ؟ وقد نصر في تلك الموقعة نصراً مؤزراً بجيش صغير ، إذ أن جيشه كان في ذلك الوقت بأجم مصر .

وأصيب أخوه نصرة الدين مرة بسهم أذهب إحدى عينيه . فلما رآه نورالدين قال له : لو كشف لك عن الاجر الذي أعدّ لك لتمنيت أن تذهب الاخرى . وقرىء عليه مرة جزء من حديث كانت له به رواية ، وذلك حين نزل الصليبيون على دمياط في مصر ، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يبتسم لتتمّ السلسلة على ما عرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إني لأستحيي من الله تعالى أن يراني متبسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج . وقال له اصحابه مرة إنّ لك في بلادك إدرارات كثيرة وأوقافاً وصلات عظيمة للفقهاء والفقراء والقرّاء والمتعبدين ، فلو استعنت بها لكان أمثل فغضب وقال : إني والله لأرجو بأولئك النصر ، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من يقاتل عني إذا رآني بسهام قد تخطىء وقد تصيب ؟ ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه اليهم ، كيف أعطيه غيرهم ؟ فسكتوا .

ورعه وعبادته وتحنثه — ويظهر إيمان نورالدين في كثرة تعبده وتحنثه ، فقد كان يصلي كثيراً من الليل ؛ وكان من عادته أنه كان ينزل إلى المسجد بنلس ، ولا يزال يركع فيه حتى يصلي الصبح . قال أبو الفتح الأهتري : بلغنا بأخبار التواتر عن جماعة يعتمد على قولهم أنه كان أكثر الليالي يصلي ويناجي ربه مقبلاً بوجهه عليه ويؤدي الصلوات الخمس في أوقاتها بتمام

شرائطها وأركانها وركوعها وسجودها . وقال عبد الله نوري — وهو أحد مماليكه — كان نور الدين محمود رحمه الله يلبس في الليل مسحاً ويقوم يصلي فيه قطعة من الليل ، وكان يرفع يديه إلى السماء ويتضرّع ويبكي ويقول : إرحم العثار المكاس . وكان متتبعاً للآثار النبوية حريصاً على فعل الخير ، وقام بإصلاحات دينية كثيرة منها انه منع شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده ومنع إدخالها الى ديارها ، وكان يحد شاربها الحد الشرعي ، كل الناس عنده فيه سواء ، ولم يتمكن أحداً من إظهار ما يخالف الدين وكان يقول في ذلك : نحن نحفظ الطرق من لصّ وقاطع طريق والأذى الحاصل منهما قريب ، أفلا نحفظ الدين ونمنع عنه ما يناقضه وهو الأصل ؟ . وحكي أن إنساناً بدمشق يعرف بيوسف بن آدم كان يظهر الزهد والتنسّك وكثر أتباعه ، فأظهر شيئاً من التشيع ، فبلغ خبره نور الدين فأحضره وأركبه حماراً وأمر بصفعه وطاف به في البلد ونودي عليه : هذا هو جزاء من أظهر في الدين البدع ، ثم نفاه من دمشق .

هيبته — ويروي المؤرخون انه لما أبطل حيّ على خير العمل في الأذان في حلب ، واستبدل بها حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح ، ومنع التظاهر بسب الصحابة ، عظم ذلك على الاسماعيلية وضاقت له صدورهم وهاجوا وماجوا ، ثم سكنوا وأحجموا للخوف من السطوة النورية المشهورة والهيبة المحذوة

حب الناس له — وقد أحبّ الناس نور الدين حبّاً عظيماً وتعلقوا به وانقادوا له حتى بلغ من حبهم له أن راحوا يفدونه بالأرواح : حدث مرّة أن الافرنج غافلوا المسلمين وهاجموهم من وراء الجسر ، فلم يطق المسلمون دفعهم فانهزموا ، ووضع الفرنج السيف وأكثروا القتل والأسر ، وقصدوا خيمة نور الدين فخرج عجلاً وركب فرساً وحده ، وكان في رجل الفرس شبحة ، فنزل رجل من الأكراد فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي ، ولولا تضحية الكردي بنفسه لقتل نور الدين . ولما عزم على فتح بانياس قدم دمشق في إخراج آلات الحروب وتجهيزها الى العسكر ، وأمر بالنداء بدمشق في الغزاة والمجاهدين ، فتبعه من الأحداث والمطوّعة والفقهاء والصوفية والمتدينين خلق كثير . وأصابه مرة مرض حادّ عام ٥٢ فقلقت النفوس وجزعت القلوب وتفرّقت جموع المسلمين واضطربت الأعمال حتى شفي فاطمأن الناس وفرحوا بشفائه فرحاً عظيماً .

ولما عزم نور الدين على فتح حارم أرسل كتباً إلى الامراء يطلب منهم الاشتراك معه في الجهاد فلما قرأ تقي الدين قرا أرسلان كتابه قال له خواصه على أي شيء عزمت ؟ قال على القعود ، فان نور الدين قد تحشّف من كثرة الصوم والصلاة فهو يلقي بنفسه والناس معه

في المهالك ، فلما كان من الغد أمر بالنداء في العسكر بالتجهز للغزاة فقال له خواصه ، ما عهدنا مما بدا ؟ فارقناك بالأمس على حال ونرى الآن ضدها فقال إن نور الدين قد ملك معي طريقاً إن لم أنجده خرج أهل بلادي عن طاعتي وأخرجوا البلاد عن يدي . فقد كان زهادها وعبادها والمنقطعون عن الدنيا يذكرهم ما تلقى المسلمون من الفرنج ويطلب منهم أن يحثوا المسلمين على الغزاة فقد قعد كل واحد من أولئك ومعه اتباعه وأصحابه وهم يقرأون كتب نور الدين ويكتبون ويلعنوني ويدعون عليّ فلا بدّ من إجابة دعوته .

وكيف لا يحبه الناس ويتعلّقون به ويفدونه بالنالي والنفيس وهو الذي أسس دولة وبنى ملكاً وشاد مجداً واستطاع بذكائه وإخلاصه أن يخلص البلاد الاسلامية من شر حملات كانت تتدفق على هذه الديار كالسيل الهادر ؟ وكيف لا يحبونه ويلقبونه بالملك العادل وهو الذي سار في الناس سيرة ذكرتهم بعهد العمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ونشر المساواة بينهم وأخذ للضعيف بحقه من القوي المعتدي ، وبذل قصاري جهده في سبيل الترفيه عن الرعية ونشر الأمن والرخاء والسعادة فيهم . لقد دعي بحق الملك العادل وإن سيرة عدله لتعد من أعظم سير الملوك وأروعها .

ورعه — وكان رحمه الله ورعاً ، فانه مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده وأموالها ، كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرّف فيما يخصه الاّ من ملك كان له ، قد اقتناه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لصالح المسلمين : أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحلّه ولم يتعده الى غيره .

قال ابن الأثير : حكى لي من أثق به أنه دخل يوماً الى خزانة المال ، فرأى فيها مالاً أنكره فسأل عنه فقيل له إن القاضي كمال الدين ارسله وهو من جهة كذا . فقال : إن هذا المال ليس لنا ولا لبيت المال في هذه الجهة شيء وأمر برده وإعادته الى كمال الدين ليرده على صاحبه ، فأرسله بتولي الخزانة الى كمال الدين فرده الى الخزانة وقال : إذا سأل الملك العادل عنه فقولوا له عني إنه له فدخل نور الدين الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر على النواب وقال : ألم أقل لكم يعاد هذا المال على أصحابه ؟ فذكروا له قول كمال الدين فرده اليه وقال للرسول : قل لكمال الدين أنت تقدر على حمل هذا المال ، وأما أنا فرقيتي دقيقة لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى ، يعاد قولاً واحداً .

صدقاته وهباته — وكان كثير الهبات والصدقات ، يعطي عن يتوسم فيه الخير والحاجة . حكي عنه أنه حمل إليه من مصر ثمامة من القصب الرفيع مذهبة ، فلم يلتفت اليها ، وبينما الحاضرون معه في حديثها إذ جاءه رجل زاهد فأمر له بها . فقيل له إنها لا تصلح لهذا الرجل

ولو أعطي غيرها كان أنفع له ، فقال : أعطوها له فاني أرجو أن أعوّض عنها في الآخرة ، فسلمت اليه فسار بها الى بغداد فباعها بستمائة دينار .

وحُسب ما تصدق به على الفقراء قبيل وفاته بأشهر قليلة فزاد على ثلاثين ألف دينار ، وكانت عادته في الصدقة أنه يحضر جماعة من أماثل البلد من كل محلة ويسألهم عمن يمرضون في جوارهم من أهل الحاجة ثم يصرف اليهم صدقاتهم . وكان يصرف ما خصص له من المال في كل شهر في نفقاته وحوائجه ، وما زاد معه في آخر الشهر تصدّق به على الفقراء .

وحضر صبي وبكى عند الملك العادل وذكر أن أباه محبوس على أجرة حجرة من حجر الوقف فسأل عن حاله فقالوا : هذا الصبي ابن الشيخ أبي سعد الصوفي وهو رجل زاهد قاعد في حجرة للوقف وليس له قدرة على الأجرة ، وقد حبسه وكيل الوقف لأنه اجتمع عليه أجرة سنة . فسأل الملك العادل : كم أجرة السنة ؟ فقالوا : مائة وخمسون وذكروا سيرته وطريقته وفقره ، فرقّ له وأنعم عليه وقال : نحن نعطيه كل سنة هذا القدر ليصرفه الى الأجرة ويقعد فيها . وتقدم بذلك وباخراجه من الحبس ، فوصل الى قلب كل واحد من الحاضرين الفرح حتى كأن الانعام كان في حقه .

عدله — قال ابن الأثير : لقد كان نور الدين يتحرّى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان القوي والضعيف عنده في الحق سواء ، وكان يسمع شكوى المظلوم ويتولى كشف حاله بنفسه ولا يكل ذلك الى حاجب ولا أمير . وإن أخبار عدله وحوادثه كثيرة لا يمكن أن تحصى ، ولقد قرأت منها الشيء الكثير فامتلأت نفسي إكباراً له واعجاباً به . ويحسن أن أورد لكم حادثة منها . قال العماد الكاتب : كان نور الدين يلعب بالكرة ليروّض خيله ويمرّنها ، فرأى رجلاً يحدث آخر ويشير بيده الى نور الدين فأرسل اليه يسأله عن حاله فقال : لي مع الملك العادل محكومة ، وهذا غلام القاضي ، فألقى نور الدين الجوكان من يده وخرج من الميدان وسار الى القاضي وهو حينئذٍ كمال الدين الشهرزوري وأرسل الى القاضي يقول له : انيّ قد جئت محاكماً فاسلك معي مثل ما تسلكه مع غيري ، فلما حضر ساوى بينه وبين خصمه وحاكمه فلم يثبت عليه حق وثبت الملك لنور الدين ، فقال نور الدين حينئذٍ للقاضي ولمن حضر : هل ثبت له عندي حق ؟ قالوا : لا . قال : اشهدوا أني قد وهبت له هذا الملك الذي حاكمني عليه وهو له دوني ، وقد كنت أعلم انه لا حقّ له عندي وإنما حضرت معه لئلا يظن أني قد ظلمته . فحيث ظهر أن الحق لي وهبته له . وهذا كما يقول راوي القصة مستكثر من ملك متأخر بعد فساد الزمان وتفرّق الكلمة . أجل إنه لمستكثر ، وهل يجتمع في عصرنا هذا ، عصر المدنية والنور ، أن ملكاً أو أميراً أو وزيراً

وقف الى جانب خصم غير ذي مكانة أمام الحاكم أو القاضي.

ولقد قال نور الدين: اني أفكر في والٍ وليته أمراً من أمور المسلمين فلم يعدل فيهم، أو فيمن يظلم المسلمين من أصحابي وأعواني، وأخاف المطالبة بدمك، ثم قال للعبدين المواقفين على رأسه: بالله عليكما لا تريان قصة ترفع إليّ أو تعلمان مظلمة إلا أعلماني بها، وارفعاها إليّ، وإلا فخيري عليكما حرام.

ولكثرة تحريه العدل بنى دار العدل بدمشق وعيّن لها موظفين ورسم لها ميزانية خاصة وصارت هذه الدار ملجأ للمظلومين من أقاصي البلاد، وكان يقعد فيها في الاسبوع الواحد أربعة أيام أو خمسة لكشف الظلامات والنظر في أمور الرعية، لا يطلب بذلك درهماً ولا ديناراً يرجعان الى خزانة، بل كان يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله. وكان يأمر بحضور العلماء والفقهاء الى جانبه ويأمر بازالة الحاجب والبواب ليصل اليه الضعيف والقوي والفقير والغني. قال أبو الفتح الاشتري الفقيه: كانت تحضر مجلسه العجوز الضعيفة التي لا تقدر على الوصول الى خصمها ولا التكلم معه فيأمر بمساواته لها فتغلب خصمها طمعاً في عدله ويعجز الخصم عن دفعها خوفاً من عدله.

ومن أعجب ما ورد عن عدله انه عدل بعد موته، وذلك أن رجلاً غريباً استوطن دمشق لما رأى من عدل نور الدين، فلما توفي نور الدين اعتدى بعض الجنود على هذا الرجل فدكاه فلم ينصف فنزل من القلعة وهو يستغيث ويبكي وقد شق ثوبه وهو يقول: يا نور الدين لو رأيتنا وما نحن فيه من الظلم لرحمتنا أين عدلك؟ وقصد قبر نور الدين ومعه من الخلق ما لا يحصى وكلهم يبكي ويصيح، فوصل الخبر الى صلاح الدين فقيل له احفظ البلد والرعية وإلا خرج عن يدك، فأرسل الى ذلك الرجل وهو عند قبر نور الدين يبكي والناس معه وطيّب قلبه ووهبه شيئاً وأنصفه فبكى أشد من الأول فقال له صلاح الدين: ما يبكيك؟ قال أبكي على سلطان عدل فينا بعد موته. فقال صلاح الدين هذا هو الحق، وكل ما ترى فينا من عدل فمنه نقتبسه.

ودخل عليه غلامه مرة وأبلغه أن القاضي يطلبه الى مجلس الحكم ليحكم بينه وبين تاجر ادعى عليه شيئاً. فقال نور الدين يُحضر فرسي حتى ركب إليه، السمع والطاعة. قال الله تعالى إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، ثم نهض وركب حتى دخل باب المدينة فاستدعى الخادم وقال له: إمض إلى القاضي وسلّم عليه، وقل له إني جئت إلى هنا امتثالاً لأمر الشرع وأحتاج في الحضور إلى مجلسه إلى سلوك هذه الأزقة وفيها الأصباغ، وهذا وكيلي يسمع الدعوى. وإن توجهت عليّ يمين أحلف إن شاء الله

تعالى ، فحضر الوكيل وسمع الدعوى وتوجّهت اليمين فقال : القاضي : قد توجهت اليمين فليحضر . فلما بلغ نورالدين ذلك وعلم أنه لا مندوحة عن حضور مجلسه لليمين استدعى ذلك التاجر الخصم وأصلح الأمر فيما بينه وبينه ورضاه .

ومن عدله أنه لم يكن يعاقب العقوبة التي يعاقب بها بعض الملوك على الظنّة والتهمة بل يطلب الشهود على المتهم ، فإن قامت البينة الشرعية عاقبه العقوبة الشرعية من غير تعدّ ، فدفع الله بهذا الفعل عن الناس من الشر ما يوجد في غير ولايته ، وأمنت بلاده على دمها وقلّ الشر والفساد .

ودخل حلب ، في عهد نورالدين ، تاجر موسر ، فمات بها وخلّف ولداً صغيراً ومالاً كثيراً . فكتب أحد الناس إلى نورالدين يذكر له أنه قد مات هاهنا تاجر موسر وخلّف عشرين ألف دينار ، وله ولد عمره عشر سنين وحسّن له أن يرفع المال الى الخزانة إلى أن يكبر الصغير يرضيه منه بشيء ويمسك الباقي للخزانة فكتب نورالدين على رقعته : أما الميت فرحمه الله ، وأما الولد فأنشأه الله ، وأما المال فتمّره الله ، وأما الساعي فلعنه الله !

وكتب بإسقاط المكوس والضرائب وقال والله ما أخذناها إلاّ في جهاد عدوّ الاسلام ، يعتذر بذلك للناس عن أخذها ، ومنع ما كان يؤخذ من أهل دمشق من المغارم بدار البطيخ وسوق الغنم والكيالة وغيرها وأذاع منشوراً طويلاً يبطل فيه جميع المظالم .

وخدم نورالدين الاوقاف الاسلامية خدمات جلّ قدرها ونظّمها وأشرف عليها ولم يدع درهماً واحداً يضيع منها ، وكانت الاوقاف في زمنه تبلغ آلاف دينار في كل شهر كلها ملك صحيح شرعي ، وأما ما كان يهدى إليه من هدايا الملوك وغيرهم فانه كان لا يتصرف في شيء منه بل إذا اجتمع يخرجه الى مجلس القاضي ويحصل ثمنه ويصرفه في عمارة المساجد المهجورة ، فهل وجدتم زاهداً أعظم من هذه الزاهدة ؟ أما المساجد والمدارس والبيمارستانات والقلاع التي شادها وبناها فأكثر من أن تحصى ، وإن دمشق اليوم لا تزال شاهدة على خدماته ناطقة بها ، ولا تزال المدارس والمساجد النورية قائمة في المدن السورية كحلب وحمص وحماة ومنبج لم تمسها يد الزمان بعد ، وقد كان البيمارستان ذا ماض زاهر وكثير الخير وقفه نور الدين على المسلمين كافة ، وان الخانات التي بناها مبثوثة بين المدن السورية كانت ملجأ لكثير من المنقطعين والمسافرين ، وان الربط والخانقاهات والمدارس والاوقاف المخصصة لها أشهر من أن تذكر ، وهو أول من بنى داراً للحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كبيرة ، وهي دار الحديث النورية التي لا تزال إلى اليوم قائمة في سوق الخضرونية وقد كانت أوسع مما هي عليه اليوم بكثير .

وكان يجمع العلماء والشيوخ عنده ويقرّبهم ويدنيهم ويتواضع لهم ، ويعظمهم ويوقرهم

ويطلب إليهم البحث والمناظرة ، فيقصدونه من البلاد القاصية كخراسان وغيرها ، وكان أهل الدين معه في أعلى محل وأرفع مكانة ، وكان أمراؤه يحسدونهم على ذلك وكانوا يقعون عند قلوبهم وإذا نظروا من إنسان شيئاً قال لهم ومن المعصوم ؟ إنما الكامل من تبدو ذنوبه .

ولقد كانت الشام خالية من العلم وأهله ، وفي زمانه صارت مقرًّا للعلماء والفقهاء والصوفية ، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس عنده إلا إذن بل يقفون بين يديه حتى يأذن لهم ، فإذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام لهم وعلى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون . وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً مستكثراً يقول : هؤلاء جند الله . وبدعائهم ننصر على الأعداء ، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم ، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة والفضل

وكان نور الدين حنفي المذهب ، حسن الخط ، كثير المطالعة للكتب الدينية والعلمية وحدث بحلب ودمشق عن جماعة من العلماء أجازوا له ، وله أقوال وحكم منها ما ذكره أحد أتباعه المخلصين به قال : كنت معه يوماً في الميدان والشمس في ظهورنا فكان سرنا تقدمنا الظل ، فلما عدنا صار ظلنا وراء ظهورنا . فأجرى فرسه وهو يلتفت وراءه وقال لي : أتدري لأي شيء أجري فرسي وألتفت وراءي ؟ قلت : لا . قال : قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا ، نهرب ممن يطلبها ، ونطلب من يهرب منها .

هذا طرف من سيرة بطل الاسلام ، ولو رحت أعدد مناقبه وأخلاقه وأعماله العظيمة لأطلت ، ولقد صدق ابن الأثير إذ يقول : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا — فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا أكثر تحريًا للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل يظهره وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها وعبادة يقوم بها وإحسان يوليه وإنعام يسديه ، فلو كان في أمة لافتخرت به فكيف ببيت واحد ؟

وروى أبو الفتح الاشتري قال : بلغنا عن جماعة من الصوفية الذين يعتمد على أقوالهم ممن دخلوا القدس للزيارة حكاية عن الصليبيين وأنهم يقولون . ابن القسيم له مع الله سر ، فانه ما يظفر علينا بكثرة جنده وعسكره وانما نظفر علينا بالدعاء وصلاة الليل ، فانه يصلي بالليل ويرفع يده الى الله ويدعو ، فالله سبحانه ونعالى يستجيب له دعاءه ويعطيه سؤله وما يرد يده خائبة فيظفر علينا . قال . فهذا كلام الكفار في حقه .

رحمك الله يا نور الدين فلقد سطرت في سجل التاريخ الاسلامي صفحة ناصعة من صفحات البطولة والمجد ستبقى على توالي الأحقاب نبراساً يستضيء به المخلصون في مشارق الأرض ومغاربها .

(دمشق) زاهي الشطاوي

في الصيف

بين الصيفين من لا ينتفع بأيامه على الشاطىء .. لانه يسرف في اللهو .. ساهراً بين كؤوس الطلا .. مكباً على موائد الميسر .. مبعداً عنه أقدام الغواني .. ناسياً أن أيام الصيف فترة استجمام .. ينبغي أن يهنأ المرء خلالها براحة تامة : نفسية ، وعقلية ، وجسدية.

وكيما تحصل على أوفر نصيب من الصحة .. ضع لنفسك الصيفية برنامجاً اكتبه على ورقة وتفقده بإخلاص وأمانة .. متخذاً أساساً لهذا البرنامج أن أيام الشاطىء هي فترة تختزن في أثنائها التناصر والقوة والصحة فلنعم بأكله .

واليك نظاماً اذا رأيت اتباعه .. وإلا فضع على غراره ما يناسبك :

١ — استيقظ مع الصباح عند الساعة السابعة .

٢ — بعد غسل أسنانك .. واشرب كوب من الماء على الريق .. تناول متقوع التين والبلح ، والمشمش ، والقراصية ، والزبيب ، والخروب .

٣ — اذهب الى الشاطىء مشياً على الاقدام .. وتنفس تنفساً عميقاً أثناء المسير

٤ — قم على الشاطىء بعض ألعاب رياضية ربع ساعة

٥ — اسبح ربع ساعة . ولا تخش برودة البحر لانه في الصيف أدفأ منه ظهراً

٦ — خذ حمام الشمس ربع ساعة أخرى ثم عد الى بيتك أو « كابينتك »

٧ — تناول طعام الافطار ، وليكن لبناً ، وفاكهة ، وبيلة مجهزة بالعسل النحل والزبيب والبندق .

٨ — اذا شعرت بالنوم بعد الافطار .. فنم .. فني الصيف يجب أن تنام ضعف ما تنام في حياتك العادية .

٩ — في وقت الظهيرة عد الى الشاطىء .. وخذ حمامك الثاني بحراً وشمساً .

١٠ — تناول طعام الغداء .. وليكن نوعين من الخضر ولحماً ، أو سمكاً ، أو بيضاً ، وسلاطة ، وفاكهة .

١١ — نم وقت الظهيرة ما شئت .

١٢ — في المساء اقض الجلوس في الهواء .. وسر على الشاطىء حتى تحس التعب ثم عد الى بيتك . وإياك أن تنسى التنفس العميق كلما سنحت

١٣ — تناول طعام العشاء : عيشاً مجزوءاً من دقيق القمح بأكمله ، وجبنة ، ولبن زبادي ، وفاكهة ، وظيلا من البندق

١٤ — ثم أهجع عند العاشرة مساء .. وأنت ممتلئ نشاطاً وسعادة وقوة .

فريدي عطا الله

قبر أنخوس آمن

عندما أشرفت بعثتنا من فوق ربوة تطل على سهول طيبة الجافة ، كان يتملكني إحساس قوي بأن هذا الركن المنعزل من صحراء ليبيا يخفي ما كنت ساعياً إلى كشفه منذ سنين عديدة — ألا وهو قبر الملكة (أنخوس آمن) قرينة الملك (توت عنخ آمن) .

وبعد عدة أشهر فتحنا مخدع الملكة المدفون في نفس ذلك اليوم المشئوم الذي غزا فيه هنفر بولندا ، فاضطررنا أن نسد اللحد بما يحويه من كنز ثمين ، وأرجأنا التنقيب في هذا القبر الكائن في وادي الملكات . والإرل (تانكارفيل) يمدنا بالمال اللازم خدمةً لتحفين اثنين .

وكانت حملتنا الأثرية مؤلفة مني ومن مسّاح ومصوّر وجيولوجي وطلاّب وخدم وأتباع ومن رفاق الخواص وهم حسن وأحمد ملاحظ العمال واثنين من الأعراب الخبيرين الذين قمت معهم باستكشاف في الصحراء الكبرى وحبيب الطبّاخ وكانت مؤونتنا تدعن من الأقصر في قارب ثم تنقل الينا بالسيارة

ولستكشفنا في أحد الأيام ما أثار دهشتنا حين بان لنا خاتم حجري قد نقش عليه اسم (أنخوس آمن) وذلك عند ما كنت وحسن ننقب في المقاوز الغربية من وادي الملكات . فكان دليلاً قاطعاً على وجود القبر غير المكتشف . عندئذٍ مسحنا المكان مسحاً دقيقاً وثبتناه بالخرط بما فيه من صخور مبعثرة وأخاديد وأجراف وكذلك مررنا على درج لم يظهر منه غير جزء لا يتجاوز المتر عقد على حافة صخرة عاتية . ثم اعتدرنا الى اثنين أنا واحمد وحسن وعلي خادمي الشخصي وحبيب الطاهي ودللنا الى مخيمنا فحملنا الحبال والفؤوس والمجارف والمناخل وغيرها من الأدوات وعدنا الى المكان فنزلنا عدة درجات أخرى بعد تعب شديد اكتشفنا على أثره ممرًّا منحدراً مليئاً بالأنقاض .

واستطعنا في اليوم الثاني أن نصل الى المدخل المقفل وان نحدث ثقباً في الجدار القديم

القائم بدون أن تخدش آثار الخاتم وأنا عند تسليط نور المصباح الكهربائي نحو تلك الفتحة ثقبًا ضيقًا آخر قد كدّست فيه الأنقاض أيضاً .

ولم ينقض يومان حتى تمكنّا من ان نحفر حفرة لمدى أربعين قدماً أدّت بنا الى باب ثانٍ موصد ومختوم، فقضينا الاختام جميعها وأدّيت قنديلاً خاصًّا لاختبار احتمال وجود غازات سامة ميتة . فاكتفيت أفعل ذلك حتى تراقص لهب القنديل بتأثير خروج الهواء الحار الذي كان محبوساً نيفاً وثلاثة آلاف وأربعمائة سنة .

فهتف حسن بانشراح مؤكداً أن هذا المكان لابدّ أن يكون المدفن الملكي الذي يضم كنوز الملوك .

وكانت مباغتة صفق لها قلبي فرحاً وسروراً عند ما شاهدت وأنا أسلط النور الى الغرفة الصخرية التي يبلغ طولها ٣٠ قدماً وعرضها ١٥ قدماً الكنز البرّاق، كنز عصر الملوك في مصر القديمة ، عند ذلك وسعنا الثغرة بالفؤوس بالمقدار الذي يسمح لنا أن نلج منه ورفاقي العرب خلال العمل يرتلون بعض الآيات القرآنية ويقرأون التعاويذ . ولقد كان الحرّ شديداً لا يطاق والرمل الخشن يخمش وجوهنا . وانى لموجه نور المصباح ، إذا بي أشاهد آثار طبعات أقدام حافية عليه هي من غير شك طبعات أقدام الذين دفنوا الملكة في ذلك العصر .

وأما سرير الملكة الذهبي وكراسيها وتماثيلها وزهرياتها الرخامية وصناديقها المرصعة فكانت تزهو بألوانها وتلمع ببلاطها المسجدي واللجيني . وبينما نحن ذاهلون من هذا المشهد الفريد ، إذا بنا نسمع صوتاً غريباً أهبه بالحفيف . فنزلنا ومعنا آلة التصوير ومصباح الرش لأني كنت على بينة مما سيحدث إذ علمتني تجربة فتح قبر الملكة (تن هيتان) ما ينبغي عليّ تداركه . ان الهواء الجديد الذي اندفع من الخارج كاد يبدل جو الغرفة الميّت ، حيث أخذت المحتويات الثمينة بالتفسخ والتغيرات الكيميائية بالتزايد وأنا أصوّر الغرفة وأرش أوعن الوداع بالمادة الكيميائية المثبتة خشية أن لا يتكرّر ما حدث عند فتح مخدع الملك (توت عنخ آمن) إذ استحالت أثمن محتوياته تراباً حيث لم يكن العلم قد توصل في ذلك الوقت الى الخطة لمثل هذه الطوارىء والحالات .

والمركّب الكيماوي الذي يتزوّد به كل عالم أثري يرهبه هي العاديات الواهنة فتنصاب في

الحال ولا بتغير ما فيها من ألوان وزخارف . وهذا ما فعلته في كل محتويات هذه الغرفة الخالدة قبل أن يعتريها الناف أو يصيبها التفسخ .

ولبثنا يومين كاملين وشهر بعد الأشرطة اللاصقة وكميات كبيرة من محلول (الكلوديون) والبرافين والقطن لحفظ التحف الناعمة وطلبت الى علي أن يذهب الى الاقصر ليجلب لنا فولاذيًا وأقفالاً محكمة لسد المدخل . وانقضت أيام كنا نسعى خلالها سعياً حثيثاً ومتواصلاً حتى تمكنا في آخرها من فتح الغرفة الثانية المطمورة .

وكان أول ما حيانا فيها ونحن نسلط الانوار الكشافة منظر يخلب الالباب ويأخذ بمجامع القلوب إذ شاهدنا ثلاثة أسرة مذهبة ناصبة وكراسي صغيرة مطعمة بالذهب الابريز وزهريات رخامية قد زينت جميعها بصورة الملكة الراحلة .

وقد عثرنا تحت الخدع على صناديق خاصة بالثياب وأخرى للحلي وكلها مرصعة بالأحجار الكريمة بشكل فني بديع . وقد صنعت من الذهب والفضة والعاج وضمنها أحقاق لأحمر الخدود والشفاه ومساحيق للوجه وملاقط للشعر ومقصات فضية وحاكين لتقليم الأظافر ودبابيس ذهبية للصفائر ومرايا عسجدية ومجموعة من الحلي النفيسة كالأساور والخواتم والأقراط والقلائد وغيرها مما لا يمكن تقدير ثمنه قد حفظت بكل الاتقان .

وأخرجنا ثلاثة تيجان متفاوتة الجمال من أحد صناديق الحلي الذي كان موضوعاً بجانب التمثال النصفي للملكة قد غطي ثلاثة منها بقبعتين تمثلان نسراً ناشراً جناحيه على جانبي الرأس وقبعة التاج الثالث بهيئة الثعبان المقدس (كوبرا) الذي كان يلبسها الملوك والملكات والرهبان فقط كشعار قدسي خاص بهم .

غير ان أثمن ما اكتشفناه من هذا كله صندوق في داخله ملف أسطواني من البابيروس مخطوط دوّن فيه تاريخ حياة الملكة والذي ساعدنا على ما كنا نجهله عن بعض نواحي حياة الملك (تورت عنخ آمن) حيث لم يعثر عند كشف لحده على مخطوط ثمائل يعرفنا قصة حياته .

واستطعنا كذلك أن نخرج العربة الملكية الذهبية وكانت الآثار الظاهرة على مجلاتها تدل على كثرة دورانها في شوارع مدينة طيبة الوعرة .

وأما ثياب الملكة (انخس آمن) فوجدناها بالشكل الذي وضعت به تفوح منها ومن

سائر ذخائر الزينة النسائية لذلك العصر روائع المسك والخزامى والياسمين . وانتهى بنا البحث الى اللحد المخفي تحت الدرج بستة عشر قدماً واستطعنا بعد لأي أن نخرم جوانب النوح الصواني الذي وضع — كما يظهر — قصداً أمام مدخل قبر اللحد . وتمكنا بهدى الأنوار الكشافة أن نرى التابوت الملكي بغطائه الصواني الكبير وقد نثرت من فرقه الأزهار الزاهية.

الا أن الدهشة التي اعترتنا — ويا للأسف — من هذا المنظر المفاجيء أذهلتنا فأنستنا أن نختبر احتمال وجود غاز سام في جوّ القبو وقد فطنا اليه بعد فوات الأوان فكان اللورد تانكارفيل أول من ترنح فوقع على القطط المحنطة الجميلة وأعقبه كل من حسن وحبيب الذي كان يحمل المصباح بيده غير اني استطعت أن أمسك المصباح في اللحظة الأخيرة قبل أن يسقط وأن أحمل اللورد (تانكارفيل) المجروح الى الممر الخارجي بمساعدة أحد الاتباع بالرغم من تغلب الدخان المتصاعد الذي كان يضايق أنفاسي وقد سقط المصباح وأنا أقوم بهذا العبء فصرنا في ظلام دامس ونحن نتسلل الى خارج الحفرة بمشقة .

وكان جرح (تانكارفيل) بليغاً في جهة عينه اليمنى وأصيب العمال برضوض من تهشم بالتاووس من هدة الرعب عافيهم على الجدار الذي كان يشق الطريق أمامنا ليبعدنا عن الجو المسموم .

ولم تكد تبزغ شمس اليوم الثاني حتى استطعنا أن نزيح غطاء التاووس فبان لنا صندوق المومياء المصنوع ولم يكن في الدنيا أجمل أو أدل على الحياة من هذا التمثال الذي ظهر بعد اختفائه آلافاً من السنين وقد كانت تقوشه المرشاة بالذهب فنّاً فائقاً بذاته . وثابرنا على العمل لفتح التابوت — فنجحناه وبدأنا نرفع الأربطة الكتانية بحذر شديد وهي معطرة بالمسك الزكي المصنوع بفن مجهول. فما أسفر عن وجه الملكة رشحنا الرأس الجميل بالمواد الكيميائية اللازمة حالاً وراعنا أن وجدنا أهداب الملكة وحاجبيها تنم عن الحياة وهي بالوضع الذي حنطت فيه وكانت قسمات وجهها ضاحكة .

ان الملكة (انخوس آمن) هي البنت الثالثة للفرعون (آمن حوتب) الرابع والملكة (نفرتيتي) ماتت وهي في الربيع السادس والثلاثين كما يرويه محضر البابيروس المكتشف في قبرها .

كان الوجه مقنعاً وملفوفاً باعتناء بشريط ملوّن ولا شيء أدل على مهارة أولئك الصناع وحذقهم من اظهارهم حتى ظلال الأهداب على الوجه وصنع الاقراط الذهبية بوضع نقط قطرات عطرية على الكتفين عند أية حركة .

وكان اللورد (تانكارفيل) يصوّر كل مرحلة من مراحل فك أربطة المومياء وشرعت أرفع رباط العنق المزين بالجواهر وقلمتها عند الكتف الايمن . وبينما أنا في عملي هذا لاح لي خاتم في أصبع الملكة فيه شعار العين المقدسة انحنيت لافحصه وأنا يتملكني العجب . وانى لكذلك وقد بهرتني أصابع الملكة الرقيقة إذا باليد اليمنى تتحرّك فتوقفت أنفاسنا من روع الحادث وهوله ويد الملكة الجميلة مستمرّة في الارتفاع فأخذنا نتقهقر نحو الباب كالمجانين فانقلبت قوائم آلة التصوير على المومياء وخدشت جانب التابوت الثمين .

وتعلل حركة يد الملكة بتبدل جوّ القبو . وذلك عند ما لامس الهواء الجديد جسم المومياء المحنّط منذ آلاف سنين فحركت العضلات والمفاصل المتشنجة تبعاً لهذا التغيير الطارىء وقد حدث مثل هذا لمومياء رمسيس الثاني عند الكشف عنها .

ولما تلاشت قوى اللورد (تانكارفيل) من جراء جرحه في اليوم الثاني من فتح مومياء الملكة نقل الى الأقصر ومنها الى القاهرة وعدت فطيت تابوت المومياء الخدش وأطبقت عليه غطاءه الصواني الذي يزن طنين والمخطوط بالهيروغليفية .

وأرجعنا محتويات اللحد الى مخبئها الأصلي وأحكمنا المنافذ بالاسمنت المسلح وختمنا المدخل السري ووارياه بالانقاض والتراب .

وقد مات كل من (اللورد تانكارفيل) واحد من تسعة جراحهما الذي صبته على ما أعتقد جرثومة سامة كانت موجودة في جوّ القبو المسموم ، ولو أن الناس هناك يعزون ذلك الموت الى انتقام الفراعنة كما سبق ان مات الإرل (كارنارفون) في حالة مماثلة عند فتحه مومياء الملك (توت عنخ آمن) وإذا ما عدنا الى وادي الملكات في المستقبل فسنتزوّد بمقاييس من السوائل والبلسلين لعلاج مثل هذه النسمات الطارئة . وأكبر ظني بعد ذلك ان العالم سوف لا يسمع بموت عالم أثري من جراء انتقام الفراعنة .

فخر الدين العسيري
المفتش في ديوان وزارة المعارف
العراق . بغداد

حقيقة الضويئات

— ١ —

جاء في عدد المقتطف الأغر الصادر في يونيو من سنة ١٩٤٦ مقالة عنوانها « ما هي الفوتونات » للاستاذ نقولا حداد . فأورد الأستاذ حقائق مشوّهة أردت أن يبينها .

ولست أدري من أي ناحية أخذ الاستاذ في مقاله ، أمن الناحية التي لم يقوَ بها على تفسير الضويئات ، أم من عدم تمكنه من تفسير الكهميات الفيزيقية ، أم من اسناده لبعض العلماء أقاويل دون أن يكون لهم أي علم بما نسبه اليهم .

يسأل الأستاذ في مقاله « ما هي الأشعة » ؟ ويريد أن يفسر أشعة اكس وكل أشعة أخرى فيقول « هي تموجات إثيرية أو هي جسيمات متموجة » .

فالتموجات الاثيرية لا وجود لها في الفيزيقا الحديثة وان هذه المادة المزعومة أصبح لا وجود لها اليوم سوى اسمها . فالأشعة — كما نعلم — نوعان إما أمواج كهرطيسية أو دقائق (جسيمات) كما ذكر الاستاذ . وقد نحصل على أشعة اكس من أي مادة كانت اذا أطلقنا عليها فذائف من الالكترونات بسرعة هائلة ، لأن الالكترونات عند تصادمها بذرات المادة تشع .

أما الضويئات فقد نقل الأستاذ قول جينز عنها في كتابه « الكون الغامض » وقد استشهد الأستاذ بهذا الكتاب غير مرّة مما يظهر انه المرجع الوحيد أو الأكبر الذي توصل اليه الأستاذ في تفسير الضويئات .

السير جيمز جينز حجة وعالم كبير وله نظريات في العلم الحديث ندين له بها . ولكن كتابه الكون الغامض لا يستحق أن يكون المرجع الوحيد في تفسير تركيب الذرة وفعلها . ان السير جيمز جينز كتب كتابه « الكون الغامض » لفئتين من الناس ، أولاً : للذين يدرسون الفلسفة ويريدون أن يطلعوا على العلوم الطبيعية الحديثة اطلاعاً مجملاً ، وثانياً المثقف الذي

يود أن يعرف عن أسرار العلوم الطبيعية الحديثة معرفة مجملة وبصورة مختصرة .

ولهذا فكتاب « الكون الغامض » قد غمض منه بعض الشيء على الاستاذ بدليل انه لم يفسر الجملة التي أوردها حيث قال منسوباً الى جينز .

« يمكننا أن نتصور بوضوح الجسمين الكهربيين (البروتون والالكترون) مندفعين معاً بفعل تجاذبهما المتبادل بسرعة فائقة الى أن يتحدا أخيراً فتتلاشى تمثيلتاهما الكهربائية فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة إشعاع — هي الفوتون » .

أولاً — ان العلامة جينز لم يقل ، في آخر الجملة ، فتنطلق قوتهما المركبة منهما بومضة اشعاع — لان هذا القول ليس علميًّا فكيف تكون القوة مركب المادة ؟ ولكن جينز قال « فتنطلق طاقتهما المشتركة كومضة اشعاع » .

ثانياً — لم يفسر الاستاذ ذلك التجاذب والتفاعل الذي أحدث ذلك الاشعاع . نحن نعلم أن المادة مركبة من ذرات وهذه الذرات أيضاً مركبة من الكترونات وبروتونات وبوزترونات ، فلماذا لا نرى اشعاعاً في أكثر المادة ؟ إن جينز لم يفسر هذا القول معتمداً على الاختصار وعلى الفئة التي كتب لها . فالاشعاع الذي يحدث هو عن طريق تجربة خاصة وهي ، إذا أطلقنا قذائف من البروتونات أو الالكترونات بسرعة فائقة bombard على بروتونات أو الكترونات أخرى تتصادم تلك الكتل الصغيرة فتحول الى طاقة ، ونحن نعلم إن الطاقة تعتبر حرارة أو قل إن الحرارة شكل من أشكال الطاقة [1] ، فلا يصح أن نقول — كما قال الأستاذ — الفوتونات مادة تصحبها قوة بشكل حرارة ونور ، لأن المادة شكل والقوة شكل آخر ، كما ان القوة نوع والحرارة نوع آخر .

ثم يقول الاستاذ معتمداً على « الكون الغامض »: « ان الطاقة هي في الفوتون أو هي مصاحبة له أو هو يحملها » هذا هو قول غير صحيح وحاشى أن ينسب الى علامة مثل جينز . إن كل عالم أو كل من يدرس العلوم الطبيعية يجب أن يعرف هذه الحقيقة وهي أن الفوتونات مقادير ضوئية . وقد عبر بلانك عن هذه المقادير الضوئية بهذه الصورة $h\nu$ « (في) عدد الاهتزازات في الموجة الضوئية و h هو ثابت بلانك . وحسب نظرية بلانك فالطاقة

(١) قانون الترموديناميك الاول .

التي يرمز لها بحرف تساوي E تساوي mv^2 = E أي ان الفوتونات هي « طاقة » فلا حاجة لمثل هذا اللف والدوران وهذه التعاسير والتلسفات .

ثم أورد الأستاذ تجربة كوكرفت وولتن في تغيير ذرة الليثيوم مع ذرة هيدروجين أي ذرتي هيليوم ، فقال الأستاذ ان هنالك نقصاً قد حصل « فأين ذهب » ؟

ثم يقول « فترى أنه في تحول الليثيوم والهيدروجين الى هيليوم ضاع في المادة ما قدره ٠٫٠١٨٣ ، ٠ فأين ذهبت هذه المادة ؟ لم تضع بل ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات » . ثم يقول الأستاذ « فبناء على هذه الظاهرة التي استغربها العلماء فان انشتين ، ووافقه بعض زملائه ، قال إن المادة قوة والقوة مادة وكلاهما شيء واحد » ثم يقول « وانشتين يعلل طلاّب العلم البسطاء أمثالي » — أي الأستاذ — ثم يدحض قول انشتين.

شيء مضحك أن ينسب الأستاذ حداد الى انشتين قولاً لم يقله ولن يقوله لأن انشتين أكبر علماء العصر الحديث، فلو صحّ هذا القول الذي نسبه اليه الأستاذ لأصبح انشتين أكبر مجانين العصر الحديث .

لست أدري من أين أتى بهذا القول وفي أي مكان أو زمان قاله انشتين « ان المادة قوة والقوة مادة وكلاهما شيء واحد » .

لنقف قليلاً ولنعد الى النقصان في التجربة المذكورة ، ونرى كيف يعلله الأستاذ حداد فهو يقول ذهبت قوة أو طاقة تصحبها فوتونات .

ولكن الأستاذ لم يعلمنا كيف حصلت هذه القوة أو الطاقة التي يذكرها . هل كان التحويل عن طريق الخلط أم الكبس أم الذوبان أم عن طريق التحريك حتى نعلل ذلك النقص فنحكم له أم لانشتين . ولكن الأستاذ حكم لنفسه .

اني لست متهكماً ولكن أريد الحقيقة . يظهر أن الأستاذ نقل هذه الحقيقة نقلاً دون أن يمعن الى التجربة وهي انه اذا أطلقنا ذرة الهيدروجين كقذيفة على ذرة الليثيوم بسرعة هائلة نتج عن ذلك عنصر له ميزة الهيليوم الكيماوية وله نفس الوزن والعدد الذري. وأما النقص فليس كما ينسبه الى انشتين من أن القوة مادة والمادة قوة . نحن نعلم أن القوة هي Force والمادة Matter فكيف يقول انشتين قولاً كهذا ؟ . فانشتين قال ان الكتلة اذا

ضربت بثابت تصبح طاقة . هذا قوله الصحيح فمعادلته هي $E = mc^2$ و E هي الطاقة و هي الكتلة C^2 هو الثابت وهو مربع سرعة الضوء .

وقد جاء انشتين بهذه المعادلة سنة ١٩١٥ بينما تجربة كوكرفت وواتن كانت سنة ١٩٣٢ فلم يعلل اينشتين ذلك النقص ، وانما قانونه في الطاقة قد ضم ما جاءت به تلك التجربة فالنقص إذاً قد أصبح طاقة أو حرارة وليس قوة أو طاقة مصحوبة بفوتونات كأن القوة شكل من أشكال الطاقة وبالعكس ، أو كأن الطاقة تصحب الفوتونات وليست هي بعينها .

ان الكميات الفيزيقية هي كتركيب الدواء للمريض ، فيجب أن يكون الانسان دقيقاً في استعمالها الى درجة قوية ، يعرف تماماً ما يقول وأين يضع كلّ منهما . فاذا قال أحدٌ ٢ + ٢ = ٤ أو ٥ فهذا يدل على أن المعرفة لم تكن واضحة في دماغه والأفكار ليست بيّنة .

لقد أنعم الله علينا بالعقل ، و أفضل ما عمله العقل لبني الانسان هو اختراع العلوم الرياضية التي بها يصح أن نقول أن الانسان قد شابه الخالق وبدأ قد فهم شيئاً من أسرار خلقه.

حسب نظرية بلانك الطاقة أو الفوتونات أو المقادير الضوئية هي $E = h\nu$ لا الالكترونات إذا تصادمت فكانت سرعتها فائقة تحولت الى فوتونات وهذا دليله . لنفرض أن زخم الفوتون $\frac{h\nu}{c}$ ولنفرض ان له كتلة هي m صفر وكتلة الالكترون m

حسب انشتين وبلانك فالطاقة $= h\nu = mc^2 = \ldots (١) E$

$$(٢) \ldots m = \frac{E}{c^2}$$

$$c^2 = \frac{E}{m} = \frac{h\nu}{m}$$

وعند التصادم تكون المادة هكذا $m = \frac{h\nu}{c^2}$ صفر

نضع بدل c^2 الـ $\frac{h\nu}{m}$ نحصل

$$m = \frac{h\nu}{\frac{h\nu}{m}} = m \text{ صفر}^{(1)}$$

(١) تدعى $h\nu$ البسط مع $h\nu$ المقام وتبقى m

اذاً تكون كتلة الالكترون بعد الالتحام مساوية لكتلة الفوتون المفروسة .

***

بقيت كلمة أخرى وهي تساؤله عن القوة فيقول «ما هي القوة أو الطاقة ؟ » كل ما نفهمه منهما انما أثرهما وهي الحركة . . ! أين هي (أي القوة) لا ترى »

أولاً — كما نوهت سابقاً يجب أن نفرق بين القوة والطاقة ككميات فيزيقية فالطاقة شيء والقوة شيء .

ثانياً : فلو كنا في عصر أرسطو لما فهمنا من القوة أكثر مما تحدث عنها الاستاذ أي إنها شيء نحس فعله دون أن نراه . وأما اليوم فإننا نشعر بالقوة الفيزيقية لا بل نلمسها وذلك بنجدة الرياضيات التي بها أصبح العلم الطبيعي قادراً على أن يحل قوانينه . فنحن بهذه الواسطة نقدر أن نلمس أو نحس القوة . وهي الكتلة مضروبة بالانبعاز أو الاستعجال Acceleration [1] أي $F = ma$ أو بشكل حساب التفاضل هي

$$F = m \frac{dv}{dt} = F \; m \; \frac{d^2 3}{dt^2}$$

وأخيراً يظهر أن الاستاذ يعتمد على المطالعة في كتابة مقالات عن العلوم الطبيعية وليست تخصيصه الجامعي

القدس — فؤاد [illegible]

(١) تعمدت وضع الكميات بالرموز اللاتينية واليونانية لاني أدعو إلى كتابة الرموز العلمية على هذا الشكل . واذا لم يكن لديكم حرف (ن) أرجو تبديله بحرف n

وقد ترجم الدكتور مشرفه هذه الكلمة بـ « سرعة » كما أوردها في كتبه ونحن نعلم أن كلمة سرعة في Acceleration Velocity هي استعجال أو ايضاح أو سرعة — الزمن

٢ – الضوء يئات

قرأت في مقتطف يونيو الماضي مقال الأستاذ نقولا الحداد ردًّا على ملاحظاتي – الرقية والتاريخية – السابقة فأشكر له صراحته واعترافاته ولا عجب فهذا خلق العلماء.

لقد قال الأستاذ بادئ ذي بدء بأن ملاحظاتي كانت رقية وتاريخية ولو أنصف لم يقل ذلك إذ أنني لم أتعرَّض في مقالي السابق للتعليق على تاريخ أو رقم اللهمَّ إلاَّ عمر الأورانيوم، وأظن أن الأستاذ يوافقني بأنه لا يوجد بأي شكل من الاشكال صورة نستطيع بها أن نعين عمر الأورانيوم إلاَّ بالأرقام. أما إذا اعتبر حضرته ملاحظاتي كقولي « ان طومسون لا راذرفورد هو مكتشف الكهيرب » وقولي أيضًا « ان راذرفورد لا بوهر هو الذي أثبت أن كتلة الذرة موجودة في مركزها » وقولي « ان دقيقة ألفا تتركب من نيوترونات وكهارب وليس من كهارب فقط » فلت اذا اعتبر الاستاذ هذه الحقائق العلمية نوعاً من التاريخ والترقيم، فهذا بحث آخر.

ليتأكد الأستاذ قبل كل شيء انه عند ما ذكرت في كتابة ملاحظاتي الأولى لم يجل بخلدي على الاطلاق أن أتهجم أو انتقص من مكانة أستاذ جليل، ولكن الواعز الوحيد الذي دفعني اليها هو حب التعاون الصادق على تمحيص الحقائق في حدود الكياسة والنزاهة، والتنويه بأن القضايا العلمية وخاصة الحقائق الطبيعية والكيمائية لا تقبل التسرع ولا تحتمل السهو. وليس من المعقول أن يكون السبب في تعليقي على مسائل أولية بسيطة هو جهل أستاذنا بها، ولكنه لتصوير بشاعة السهو العلمي وخاصة من كبير كحداد نعده في الرعيل الأول من ثقافتنا ومزاجنا العلمية، وتعوَّدنا أن نحسب أقواله في مثل هاتيك البحوث حجة لا تنقصها الدقة والتثبت ولا يعتورها السهو والتسرع.

قال الأستاذ انني ذكرت الجملة « ان بوهر برهن على ان الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها » وانني قد غضضت النظر عن بقيتها التي فيها ما أراد أن ينسبه الى بوهر، وهي « ان بعض الكهيربات تقيم معها أي مع الكهارب في النواة والبعض الآخر تدور من حول

النواة على بعد منها في أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس » . ان هذا ولقع وهو ما أردته بالذات . فقد قرر الاستاذ حقيقتين مستقلتين عن بعضهما تمام الاستقلال : الأولى أن بوهر برهن على أن الكهاب تتوسط الذرة كنواة في مركزها ؛ والثانية انه — بوهر — برهن على أن للذرة نظاماً فلكيًّا . أما الحقيقة الأولى فلم تكن صحيحة وقد علقت عليها في مقالي السابق . وأما الثانية فلم أتعرّض لها لتسليمي بها ، لأن بوهر برهن حقًّا صحيحاً طبق نواميس كبلر الفلكية ونواميس الكهرباء على الذرة ، على أن لها — للذرة — نظاماً فلكيًّا . ولا أدري كيف يريد الاستاذ أن يفرض عليَّ ويلزمني بأن أغالط وأنقد حقيقة أعترف بصحتها ليستقيم المعنى الذي أراده في الحقيقة الاولى مع ان كل منهما تعبر عن وجهة نظر خاصة ومعنى خاص . وعلى كل حال فالنظام الفلكي الذي قرره بوهر للذرة بنظريته ومعادلاته الميكانيكية قد طرأ عليه كثير من التبديل والتغيير بل يعتبره نفيف من كبار العلماء على رأسهم هيزنبرج وبورن بأنه لم يعد يفي بالغرض المطلوب من وضعه ، لأنهم لاحظوا ان فيه — النظام — ثغرة واسعة لا يمكن سدُّها بحال مما اضطرهم الى ابدال الميكانيكيات البوهرية بأخرى جديدة دعوها الميكانيكيات المركسية Matrix Mechanics وربما وافينا القراء إذا سمحت الظروف ببحث خاص مفصل عن قصة الميكانيكيات الذرية .

لقد بان لي أن حضرة الاستاذ وافق على تعليقاتي إلاّ واحدة منها مهمة — المادة والأشعة الكهرطيسية في أشعة الراديوم — والأخيرة « الأشعة الكهرطيسية أو المادة المتموجة » يتفرّع عنها بحوث واسعة دقيقة لم يستطع العلم إلى الآن البت في كثير منها والقطع بصحة خواصها وهي كما أسلفت في مقالي السابق أبحاث بكر تتضارب فيها الأقوال ولم يستقر رأي العلماء فيها على قرار حاسم ، وآثرتُ في ذلك مجتزة أقرب الى النقاش الفلسفي العلمي منه الى البحث العلمي الصرف الذي يعتمد عادة على الأساليب التجريبية . ولكي نتفهم جيداً نقطة الاختلاف بيننا نعود بالقارىء الى قول الاستاذ بهذا الشأن في مقاله الأسبق وما يلي نصه :

« لا يخفى أن الأورانيوم هو رأس العناصر ذات الاشعاع Radiation ويليه الثوريوم فالاكتينيوم فالراديوم . والأورانيوم يتحوّل إلى ذاك فذاك فهذا على التوالي وأخيراً يتحوّل إلى رصاص . وعملية التحول هذه تحدث بأن يتناثر كل عنصر من هذه العناصر من

تلقاء نفسه تدريجيًّا كهارب وكهيربات على التوالي حتى تصبح ذرة العنصر الأعلى ذرة العنصر الذي تحته أي ان كل عنصر يذوب ويزيد على هذا النحو . والكهارب والكهيربات تتناثر وتنطلق فوتونات أي ضوئيات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم » اه .

إن الأستاذ يعترف هنا بأن الأشعة المنطلقة من الراديوم هي ضوئيات . وقد فندت له في مقالي السابق أنواع هذه الأشعة وقلت بأن النوع الأول وهو جسيمات ألفا — نرى الهليوم — لا يمكن أن نسميها بحال ضوئيات ، وتساءلت حينئذٍ مستغرباً كيف يجوز لنا أن نقول عن أجسام مادية لها وزنها الخاص كالهليوم إنها ضوئيات . فكان جواب الأستاذ على ذلك « من قال انه يجوز ؟ حقًّا ليست ضوئيات وما هي إلا نرى عنصر الهليوم » فكأنه بذلك أنكر قوله السابق وراح يتنصل منه . اعترف أولاً بأن أشعة الراديوم هي ضوئيات ثم سحب اعترافه عندما رددت عليه وقلت بأن أشعة ألفا لا يمكن أن تكون ضوئيات . ثم فندت له أيضاً النوعين الآخرين من تلك الأشعة وقلت إن النوع الثاني أشعة بيتا — الكترونات — هي أيضاً دقائق مادية وليست ضوئيات وتصبح ضوئيات عندما تفنى شحنتها الكهربائية . وما دامت لها شحنتها السالبة فانها ليست بضوئيات . وأما أشعة غما النوع الثالث فهي ليست دقائق مادية ، وإنما هي أشعة كهرطيسية من قبيل أشعة اكس وهذه هي الضوئيات فقط . فهل تدري ماذا كان رد الأستاذ على ذلك أيضاً ؟ قال ما نصه :

« والغريب أن حضرة الأستاذ يوافق على قول أن النور الذي نشاهده في الراديوم ليس إلاَّ فوتونات » شيء عجيب حقًّا ! إنني لا أدري من أين جاء الأستاذ بهذا النص الذي زعم بأنني نقلته وأنا في الواقع لم أقله بل بالعكس كان هي دحضه كما هو واضح من مقالي السابق . ومن يدري ؟ فلعلَّ شيطان السهو عمل بيده تشويهاً وقلباً لتلك الحقائق . ومهما يكن من شيء فإنني لا أستطيع من باب الكياسة واللباقة ان أعيد للأستاذ تلك الكلمة النابية « يخلط » التي تجنى عليَّ بها دون ما حق أو مبرر لأنني لم أتصدَّ كما صرَّح حتى ولا بشريق التلميح إلى المقارنة بين الأشعة Rays والاشعاع Radiation

والغريب أيضاً انه في نفس الصفحة بل في نفس الفقرة يعود الأستاذ فيناقض قوله هذا ويوافقني على رأيي في أشعة الراديوم ولكن دون اعتراف صريح منه فيقول ما نصه

« فالنور والحرارة اللذان ينطلقان في شمع الراديوم هما أشعة غمًّا فقط (فوتونات) وأما أشعة ألفا وبيتا فليست أشعة نور وحرارة البتة الا اذا التحم الفريقان فيما هما صادران من كتلة الراديوم وتنافت كهربيتهما وتحولا الى فوتونات» . ومن يرجع للاحظاتي في المقال السابق يدرك بأني استبعدت وأنكرت بأن تكون أشعة ألفا وبيتا ضوئيات ، بل حصرتها في أشعة غمًّا فقط وهو عين ما أتى به الاستاذ في سبيل الرد عليَّ . وبما أنه وافق على قولي بطريق غير مباشر ولا يعنيني أن تكون الموافقة صراحة أو ضمناً ما دام هدفنا هو تمحيص الحقائق — أقول ما دام الأستاذ وافق على أن أشعة ألفا وبيتا ليست ضوئيات فتمسح نقطة الاختلاف بيننا محصورة في تعريف أشعة اكس أو غمًّا أو كل أشعة كهربية في الكون . وعلى هذا الاختلاف دار معظم مقال الأستاذ كما هو ملاحظ فيه .

قلت إن معظم رد الأستاذ كان يدور على نقطة واحدة وهي قولي « إن أشعة غمًّا ليست كأختيها دقائق مادية ، وانما هي أمواج كهربية من قبيل أشعة أكس وهذه هي الضوئيات » وهنا أرانا الأستاذ عرضاً سريعاً رائعاً للمادة وخواصها والأشعة وطرائقها والطاقة وأشكالها وتحولاتها من صورة الى صورة . وقد استهجن قولي أن أشعة غمًّا ليست دقائق مادية ، حقًّا إن أشعة غمًّا وكل أشعة (نورانية) سواء أكانت مرئية أم غير مرئية هي مادة ولكن الذي قصدت أن أقوله هو أن أشعة غمًّا ليست دقائق مادية بالنسبة الى المادة التي يفعل فيها المغنطيس فعله وبالتبعية بالنسبة الى الضربين الآخرين من أشعة الراديوم ألفا وبيتا . فهذان النوعان من الأشعة مادة ، وأشعة غمًّا مادة أيضاً ، ولكي أقرب الى الأذهان الفرق والتمييز بين معنى المادة حسب الفرق الذي تقره الطبيعة الكلاسيكية — ولا يقره العلم الحديث — أي أن المادة في نظر الطبيعة الكلاسيكية هي التي تتأثر بفعل الجذب المغنطيسي والأشعة هي التي لا تتأثر به ، انني لا أدين بهذه الحقيقة لان الضوئية — أشعة غمًّا — هي مادة أيضاً خالية من الشحنة الكهربية ولكنني قلت ما قلت لانني الآن الذكر فقط . لعل أن أشعة غمًّا — الضوئيات — أو الطاقة المتموّجة ، هي مادة بلا هك وأول من طرق نظرية الكوتم على الضوء هو الأستاذ العلامة اينشتين Einstein سنة ١٩٠٥ ، وعلى ضوء الأبحاث التجريبية التي قام بها الأستاذ نيارد وغيره عن الضياء في طبيعة الطاقة المشعة Radiant energy والظاهرة المعروفة « بالفعل الكهربوري Photo-electric effect أتحفنا اينشتين بنظريته المسماة نظرية الضوء الكوتمية light quantum hypothesis التي تقول بأن الضوء دقائق مادية واحدتها الضوئية Photon أيدها الأستاذان ماير F. Meyer وجيرلك W. Gerlach بالتجربة والبرهان العملي بعد عقد من الزمن تقريباً سنة ١٩١٤ . فعلى نواميس بلانك

الكوانتمية وتجارب لبارد بني أينشتين نظريته في الضوء فقال ان الفوتون — الضويئة — هو دقيقة وفوق ذلك وحدة الاشعة، فوافق بذلك بلانك القائل بأن الطاقة المشعة التي تطلقها المادة أو تمتصها ليست شيئاً متصلاً كما قررت ذلك الطبيعة الكلاسيكية ؛ ولكنها منفصلة وقوامها وحدات من الدقائق المادية . ومنذ ذلك الحين صارت الغلبة لرأي نيوتن على هوجنس أي أن الضوء ذرات أو دقائق وليس بأمواج. فاطمأن العلماء الى أنهم قطعوا بصحة إحدى النظريات العلمية العويصة ، ولكن هذا الاطمئنان ما لبث أن تبدّد فقد لاحظ العلماء أن ظاهرة التداخل النوري لا يمكن تعليلها بحسب نظرية الكوانتم ، بل بحسب النظرية التموجية فدبت الفوضى في آراء العلماء فاكتنفتهم الحيرة المقلقة . وفي غمرة هذه الفوضى طلع الاستاذ دي برولي De Broglie بعد أن أفاد له السبيل كل من دافسون Davisson وجرمر Germer سنة ١٩٢٧ باكتشافهم الفذّ بأن دقائق المادة تتصرّف كأمواج ، أقول طلع دي برولي على العلماء بنظريته الميكانيكيات الموجية Wave Mechanics التي تنص على أن دقائق الضوء — الضويئات المنطلقة في الفضاء — تصحبها سلسلة من الامواج . وبذلك وفق بل دمج نظريتي نيوتن وهوجنس في نظرية واحدة ما زالت المقبولة عند العلماء .

والآن وقد عرفنا بأن الضويئة دقيقة مادية يتبادر الى أذهاننا سؤال خطير وهو ما هو المصير المحتوم للضويئة في الفضاء اللامتناهي ؟ وهل يحتفظ دائماً أبداً بمادته ؟ .

ان العلم لا يزال حائراً وعاجزاً عن الاجابة الحاسمة والبت في هذا السؤال الخطير ، لأن مقتضياته بعيدة عن متناولهم ومختبراتهم وللعلماء في تعليل ذلك مذهبان ، فالجماعة الاولى ترى أن تلك الدقيقة المادية — الضويئة — هي المادة نفسها أي أن المادة والطاقة شيء واحد ويقولون أيضاً بأنه سيأتي يوم مهما طال وبعد تعود فيه الشحنة الكهربية للضويئة فيصبح مادة مشحونة وتذهب الجماعة الثانية الى أنه يوجد فرق بين المادة والضويئة ، أي أن المادة شيء والطاقة شيء آخر أو بعبارة أخرى أن الضويئة سوف تبقى مادة خالدة سرمدية ولكن لا شحنة لها وبعض نفر من هذا الفريق يزيد فيقول بأن المصير المحتوم للضويئة هو الفناء — العدم — مهما طال الزمان لأن تلك الضويئات تتسع دوائر أمواج طاقتها المصاحبة لها وتطول على مرور الأزمان ، وكلما طالت لطفت ورقت الى أن تتلاشى أخيراً وتنعدم .

في تقدم يتضح لنا بأن العلم لم يجزم الى الآن في طبيعة الضوء ومصيره وعندما قلت في مقالي السابق بأن هذه النظرية لا تزال لغزاً من ألغاز العلوم وانه لا يمكن الاعتماد عليها كبرهان على صحة ما يقال لأن ذلك — على الأقل الآن — سابق لأوانه ، كنت على حق .

انطلق

عبد السلام محمد

النسيم

ليت للدهر بعض لينك أنتا ... فيما رحمةٍ من الله لنتا

قد نزحت رافلاً في أريج ... من زهورٍ صانت هواك وصُنتا

وسكَنّا إليك لما تحرّكـ ... ـتَ عليلاً ، فهل إلينا سكنتا ؟

يقبح الشيء حين يعتلُّ ، لكنـ ... ـك لما أن اعتللتَ حُسّنتا

يارسولَ الزهورِ ، ألطف مَنْ بلّـ ... ـغَ عنها رسالةَ الطيبِ ، أنتا

أنت في وحدة ، ونحن مع النا ... س ، ولكن خفنا السرى وأمنتا

تخطي صهوة الدجنة في الليـ ... ـلِ بغير ضها ، ولو وهنتَ لهنتا

يا أميناً على الهوى ، أغصنُ البا ... نِ أبانت منَ الهوى ، وأبنتا

عانقَ الغصنُ في يديك أخاهُ ... واستعانا على الهوى فأعنتا

أعناقٌ بدون إذنك ؟ كلاّ ... بل هما استأذنا ، وأنت أذنتا

يا غريباً لججتْ به لجةُ الغر ... بةِ ، قل لي أكرمتها أم أهنتا ؟

يا حليفَ السرى أتبغي مقراً ... أم مفرّاً منّا الى حيث كنتا ؟

شاعر البرازين

نظرية النمو الذاتي

ونهضة إحياء العلوم في غربي أوربا

قبل أن يظهر غلاة العنصر النوردي ظهرت طائفة من المؤرخين تمجد القبائل التيوتونية التي طغت على الدولة الرومانية الغربية وأسست دول غرب أوربا الحديثة . وهذه الطائفة تؤكد نمو العقل في غربي أوربا نمواً متصلاً متدرجاً قبل نهضة إحياء العلوم، وتعلله بأنه كان نمواً ذاتيًا وتشيد باستعداد هذه القبائل لتنمية الحضارة والثقافة . وقد يفهم القارىء من مؤلفاتها ان تلك النهضة لم تكن ثورة فكرية على الماضي ما دامت لها سوابق وحلقات متصلة أو منفصلة، وما دامت لها مراحل قبلها من نوعها، كما قد يفهم ان ذلك النمو الذاتي يقلل من أثر المؤثرات الخارجية . والحقيقة هي أن كل نهضة كبيرة في حياة الانسانية كانت نمواً ذاتيًا متدرجاً . ولكن عند حدّ معين تتعاظم المؤثرات وتتعجل نتائجها فتصير انقلاباً أو ثورة على الماضي كما إن النمو الذاتي لا ينفي عظم المؤثرات الخارجية ، فنمو الانسان الذاتي أو نمو الشجرة، لا ينفي إفادتهما من غذاء وماء وضياء ، وكلها أمور خارجة عن كيانهما . وإذا تتبعنا الثقافات والحضارات قديمها وحديثها وما يعتورها من تغير وانقلاب وجدنا ان النمو الذاتي ملحوظ في القديم منها والحديث ، ولكنه لا ينفي أن تكون مشتقة من ثقافات سابقة ولا ينفي أن تكون المؤثرات الخارجية السبب في كل مرحلة من مراحلها، كما كان الحال في نموّ الثقافة في غربي أوربا من عهد العصور المظلمة إلى عصر نهضة الإحياء ، فتأكيد فكرة النمو الذاتي في تعليل نهضة الإحياء في غربي أوربا بصفة خاصة فيه شيء من المغالطة إذ مهما عظمت المؤثرات الخارجية ومهما عظم الإقتباس من الثقافات والحضارات الأخرى ، فلا بد لكل ثقافة من نمو ذاتي، لأن القائمين بالحضارة والثقافة مخلوقات حيّة نامية، وتورث نموها الثقافي . وهذا النمو الذاتي هو أبي للحضارات والثقافات حتى المصطنعة المتكلفة القليلة الحيوية

فكيف لا يكون هناك الثقافات الكبيرة في الأمم العظيمة الاستعداد للنمو الثقافي . ولكنه مع ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن كل ثقافة مستمدة من ثقافة سابقة . ومهما كان استعداد قبائل التيوتون التي أسست دول غربي أوربا لتنمية الثقافة، فانه من المغالاة في التعصب للعنصر والجنس تهوين المؤثرات الخارجية، وكأن غلاة العنصرية يريدون أن تشذ حضارة غربي أوربا عن القاعدة العامة . ولا شك أن النمو الذاتي في ثقافة غربي أوربا مدين للحضارة والثقافة الرومانية والاغريقية والعربية ، وكل ثقافة من هذه الثقافات مدينة لحضارات أمم كثيرة سبقتها ، فكان الاغريق أساتذة الرومان من عهد اتصال الرومان بهم في مستعمرات الاغريق في جنوبي ايطاليا الذي كان يسمى بلاد الاغريق العظمى (ماجناجريشيا) الى أن غزا الرومان بلاد الاغريق في البلقان والشرق . ومن أجل ذلك صارت الثقافة التي نشرها الرومان في غربي أوروبا تسمى الثقافة الاغريقية الرومانية (جريكو رومان) وقد قضت قبائل التيوتون في العصور المظلمة على الكثير من معالم هذه الثقافة. ولكن بقيت بقية ظلت تنمو الى عهد النهضة . فالاستعداد التيوتوني للثقافة لم يكن يعمل في فراغ من الثقافة والحضارة . وعندما أسقطوا الدولة الرومانية الغربية ظلت الكنيسة المسيحية قائمة تنشر دعوتها بينهم وكانت ثقافة علمائها اغريقية رومانية، فقد نشأت المسيحية أولاً بين اليهود في عصر سادت فيه الثقافة الاغريقية في الشرق . وكان علماء اللاهوت يعتمدون على الفلسفة الاغريقية في محاولة تقريب العقائد المسيحية الى الأذهان ولو أنهم كانوا يفسرون آراء فلاسفة الاغريق تفسيراً يطابق عقائدهم . وقد استحوذ علماء المسيحية على ارسطوطاليس فقسروا آراءه فيما وراء الطبيعة تفسيراً يناسبهم واتخذوا من منطقه أداة للمحاجة الدينية ، ولكن ذلك المنطق كان رياضة كبيرة للعقل، بالرغم من محاولتهم قصره على ما يوافق عقائدهم .

***

وبالرغم من أن ارسطوطاليس كان اغريقيًّا من العهود السابقة للمسيحية، فقد كاد يُعَدُّ الخروج على قوله حسب تفسيرهم جدفاً عظيماً، وقد خرج عليه أمثال روجر باكون الانجليزي

ولكنه خرج على ارسطوطاليس الباحث عما وراء الطبيعة لا على ارسطوطاليس الباحث عن خصائص الأشياء والأحياء ، وكانت لغة التعاليم اللاتينية . ولكن مادتها مشتقة من الثقافة الاغريقية ، وولوع روجر باكون بالبحث العلمي مشتق أيضاً من ثقافة الاغريق وتلاميذهم من العرب . كل هذا يدل أيضاً على ان استعداد التيوتون الثقافي في غربي أوروبا لم يكن يعمل في فراغ ثقافي، وكانت أمم غرب أوروبا بين حضارتين : الحضارة البيزنطية الوارثة لثقافة الاغريق وكتبهم، والحضارة العربية الوارثة لثقافة الاغريق والفرس والهند . فكان غربي أوروبا تحتضنه حضارتان إلى علاوة على مخلفات الرومان . وينسى الذين يحاولون تهوين المؤثرات الخارجية أثر هذا الاحتضان والاكتناف في جميع الثقافات من أقدم العصور كما يتناسون الأدلة اللغوية من أسماء تدل على اقتباس أهل غربي أوروبا الصناعات والفنون والعلوم ، ويتجاهلون الكتب التي كانت تدرس في جامعات غربي أوروبا في القرون الوسطى وأسماء مؤلفيها من الاغريق والعرب .

* * *

ومن الغريب انهم يفعلون ذلك بحجة الدقة في البحث العلمي والتمحيص، ولكن ليس من الغريب ذلك التنامي الذي يستوي فيه العالم والجاهل ، فانه من الحقائق المقررة في علم النفس ان النفس تنسى ما تود نسيانه ولو كان معروفاً ، وهذا أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يحسنون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه ، وهذا أيضاً أمر مشاهد في أمور الحياة اليومية . وقد انقاد لهذا المذهب بعض كبار الأساتذة الذين يحسنون أن يتهموا بقلة نصيبهم من الدقة في البحث وهم على نصيب وافر منه،وهذا أيضاً أمر مشاهد في الحياة . وليس بين المؤرخين من ينكر فضل جامعات القرون الوسطى أو المراحل التي سبقتها في تنمية ثقافة غربي أوروبا، ولكن الذي ينكر حقاً تفسير نظرية النمو الذاتي تفسيراً يخالف الحقائق بتجاهل الحقائق وتناسيها بتهوين أثر المؤثرات الخارجية في نمو الاستعداد الثقافي في غربي أوروبا . وقد ظل القليل من علماء غربي أوروبا علاوة على ذلك على بعض الالمام باللغة الاغريقية أو الكتب القليلة

المنقولة عنها مباشرة قبل النقل عن العرب . وكان تجار مدن ايطاليا على اتصال بالثقافة الاغريقية القديمة في برنصة . وأغرب المدفية بجيش من الصليبيين على الدولة البيزنطية وأسست بها دويلات ما لبثت أن زالت . وقد بدأ انتقال أدباء بيزنطية بكتبهم الى ايطاليا قبل استيلاء الاتراك العثمانيين على القسطنطينية . فالاتصال بين غربي اوربا وبين كتب الاغريق القدماء لم ينقطع انقطاعاً تاماً لا في وقت السلم ولا في وقت الحرب . ومن المعروف أن بعض مشاهير غربي اوربا تعلموا في مدارس العرب ، وعندما استولى الفونس السادس ملك قشتالة على طليطلة وجد ثقافة عربية متصلة بالثقافة الاغريقية القديمة وكان ينشط ويسر بأن يسمي حامي الثقافة وراعيها ، وذلك قبل عهد اضطهاد الاسبان للعرب . وقد ترجم ريموند رئيس أساقفة معهد الترجمة كتب الثقافة العربية وساهم اليهود في هذه الترجمة كما أن بعضهم انتقل إلى جنوبي فرنسا ونشر فيها الثقافة العربية . وعندما ورث الامبراطور فردريك الثاني مملكة النورمان في جنوبي ايطاليا وصقلية أسس جامعة في نابلي واعتمد في نشر الثقافة على عرب صقلية ويهودها ، وانتشرت الحركة الفكرية في بولونا وبادوا من جامعات ايطاليا وفي مونبلييه وباريس وجامعات انجلترة ، وكانت تدرس كتب ارسطوطاليس وبعض كتب افلاطون وأفلوطين وفرفوريوس الصوري وأبقراط وجالينوس وابن سينا والفارابي والرازي وابن رشد وابن باجة وغيرهم . ومن الظلم تهوين أثر الكتب الاغريقية بأن يقال إن البحث عنها يدل على نضج الذهن قبل الاستعانة بها فراحل هذا النضج من أثرها . ومن الظلم تهوين أثر الثقافة العربية بأن يقال إن بعضهم أخطأ في فهم أو نقل بعض آراء الاغريق أو أنهم اشتغلوا بمحاولة تحويل المعادن الى ذهب أو بالتنجيم فقد كتبوا في الفلك والكيمياء والطب وأدخلوا في الصناعات والزراعات أشياء كثيرة لا تزال أسماؤها العديدة في اللغات الاوربية مشتقة من العربية ، وغيرها وضعت لها أسماء جديدة . والخلاصة هي أن النمو الذاتي لا ينفي عظم المؤثرات الخارجية ، وإنه أمر ملحوظ في كل نهضة ثقافية لا في غربي أوربا وحده ، وان نهضة الاحياء بالرغم من مراحل نموها كانت ثورة فكرية شديدة ولاقت الهلع والرعب لبعض عواقبها .

ع . ش

فشل دعاة الانقلاب

يخطىء المصلحون الثائرون على النظم الاجتماعية أو الاقتصادية ، عندما يحاولون مناوئتهم لهدم الأسس التي ينهض عليها النظام الاجتماعي القائم الذي اشتركت في اقامته ديانات وموروثات وعقول وأجيال ومدنيات مختلفة ومتباعدة ، حتى استقرت الأوضاع على التقسيم الموجودة الآن .

قد يكون بعض هذه القيم أو الأسس نتيجة أخطاء أو تكون هي في ذاتها قيماً معوجة . ولكن الحياة قد تفاعلت معها فأليفتها وصارت وما زالت تسير عليها . فالحرب والشر والأنانية والأثرة وما إليها من الأسس التي لا يختلف إنسان في ضررها ، كل هذه شرور لا شك فيها ، ولكنها مع ذلك من أسس الحياة التي لا يمكن محوها من التكوين الاجتماعي مهما حاول البشر أن يتخلصوا منها ، بل ان العالم كلما حاول أن يتخلص أو يعمل على الفرار منها دفعته أنانيته وطبيعة تكوينه إلى الاقتراب منها والانغماس فيها .

فالمجتمع في وضعه الحالي ، رغم ما فيه من أسس ونظم لا تطاق . ورغم ما فيه من شرور واعوجاج ، ليس إلا آلة فيها من العيوب الشيء الكثير . ولكنها مع ذلك آلة تدور وتؤدي عملها . بل قد تكون هذه العيوب التي نراها من الأسباب الجوهرية لإدارة هذه الآلة .

فعلى الثائرين على نظامنا الاجتماعي أن يفكروا قبل أن يحطموا آلة الحياة ، وقبل أن يفككوا أجزاءها ، عليهم أن يفكروا جيداً وأن يتريثوا فيما هم مقبلون عليه من هدم لا بناء بعده ، عليهم أن يفكروا هل يستطيعون أن يعيدوا أجزاء هذه الآلة سيرتها الأولى ؟

من السهل أن يمسك الطفل آلة أو ساعة فيحل أعضاءها وترسها . ولكن من العسير أن يعيدها ثانية إلى ما كانت عليه . فعلى المفكرين الثائرين وعلى قادة الرأي الثائرين الذين

حسبوا القدرة في أيديهم على إصلاح العالم بتغيير نظمه تما في رؤوسهم من أفكار هادمة ، عليهم أن يفكروا أولاً هل في استطاعتهم بناء عالم جديد ؟

نعم ان كل مفكر إنقلابي يستطيع أن يبني عالماً جديداً ولكن على الورق أو في خياله الطائر الثائر. من السهل أن تكون مصلحاً خلاقاً تبعث النظرية لخلق عالم جديد . ولكن من المحال أن تتفاءل متشائماً من خيالك الطمس الطائر . ولقد أصيب هذا العصر الذي نعيش فيه بالحيرة والتردد نتيجة الدوار الذي أصاب الأمم بعد حربين فتكتين وبعد انقلابات اقتصادية واجتماعية هزت أركان الوجود . فالأمم الآن مصابة بدوار كما يصاب المسافر في البحر بدوار يشعره بالدنو من الهلاك .

* * *

فمن الخطر أن تستمع الأمم وهي في هذه الحال من الدوار والقلق والحيرة إلى الآراء الانقلابية الشاذة . من الخطر أن تضع الأمم حظوظها ومستقبلها وأمانيها وقيم مدنيتها تحت سيطرة قادة لهم نزعات انقلابية هي نتيجة تفكير مريض أو وحي هاذ أو تشاؤم هادم ، فهؤلاء القادة قد أصابهم ما أصاب العالم من دوار وقلق وحيرة وتشاؤم ، ولهذا فليس من البصيرة في شيء أن يستقبل العالم آراءهم إلا كما يستقبل آراء المجنون أو المريض.

ان الحياة لا تخضع لعمل الانسان . لأن الانسان إنما هو ذرة في كيان الحياة نفسها . وإذا كانت الطبيعة البشرية في تغيير مستمر ، فليس هذا التغيير في طبيعة الحياة أو في قوانينها وإنما هو في مظاهرها فقط فلا يلبث هذا التغيير أن يتراجع حتى يعود من تلقاء ذاته من حيث بدأ — فالطفرات الانقلابية التي جاءت نتيجة المبادىء العنيفة أو حرب أو حيرة اجتماعية طارئة ، لا تلبث أن تخبو وتزول . ولكن بعد أن تترك آثاراً رجعية في الحياة الاجتماعية كالعاهات المستديمة التي تنشأ في جسم من يصاب بها في عراك عنيف .

* * *

لقد نشأت بعد الحرب العالمية الأولى نزعات سياسية واقتصادية عنيفة . فكانت البلشفية ثم النازية واستقبلتها الأمم وهي في حالة دوار أصابها بعد حرب طاحنة . فلم يكن لتفكير الهادىء من سبيل إلى هذه الأمم ، فدفعت ضحيتها ، ما في ذلك من شك .

ولقد عشنا ورأينا انهيار النزعات النازية . لقد انهارت لا لأنها نزعات ضعيفة في مادتها ، ولكنها انهارت لأنها نشأت ضعيفة هدامة لنظم الحياة المستقرة في طبيعة الكائنات . انهارت لأنها قوية بمادتها ضعيفة بروحها . انهارت لأنها نتيجة تفكير أناني مريض . أليست النازية تنفيذ دعوة الفيلسوف فريدريخ نيتشه الذي بشر بفلسفة القوة والسيطرة ؟ أوليس هذا الفيلسوف رجلاً مريضاً لا ينكر أحد أنه عاش طول حياته متنقلاً في المصحات يقاسي الآلام ، حتى قرر الأطباء أنه مجنون لا يرجى له من شفاء .

* * *

ولهذا كانت جميع آراء هذا الفيلسوف لا تخلو من أثر المرض والاعوجاج والشعور بالضعف ، فكانت وحي ألم وحيرة وحرمان . ولهذا جاءت تدعو الى ما حُرِم منه صاحبها من قوة وصحة وسيطرة . فنشأت النازية نشأة مريضة ، فدعت دعوة غير طبيعية الى السيطرة والعنف والأنانية . وجاءت والعالم في حالة دوار بعد الحرب العالمية الأولى فلم يفكر الزعماء بوعثر تفكيراً هادئاً سليماً ، بل فكروا تفكيراً متقاداً لعوامل غير طبيعية ، فكانت كارثة إذ تقررت النازية نظاماً لأمة عتيدة من أمم الدنيا ، فسارت هذه الأمة سيراً منحرفاً عن طبيعة الحياة حتى اصطدمت بحقائق الحياة الجبّارة فانهارت انهياراً قاسياً عنيفاً .

وكذلك الحال في الفاشية ظهرت في الأمة الايطالية عقب انقلاب نفسي أصاب الشعب الايطالي من دوار الحرب الماضية . فكان نظاماً مفروراً لا يستقر على طبيعة الحياة في ايطاليا ، ولا يستقيم مع عقلية الشعب الايطالي ، بل أخذ هذا النظام ينفخ في الشعب الايطالي حتى أوجد منه جسماً مكبراً مملوءاً بالهواء لا يحتوي على شيء غير الوهم ودجل الزعماء . فذهبت ايطاليا ضحية قائد مجنون لم يعرف نفسية الشعب الذي يتولاه .

فمن الخطر على النظم الاجتماعية وعلى العدالة ذاتها أن تستقبل الأمم دعوة انقلابية جديدة وهي في حالة نفسية غير مستقرة . فالعالم الآن في حالة دوار نتيجة الحرب الأخيرة ، وفي حيرة وقلق وتردد وتشكك . فليس من العدالة الانسانية أن يبدأ دعاة الانقلاب بدء مبادئهم تحت ستار النظريات الاقتصادية أو الاجتماعية الجديدة ، لأن العالم في هذه الفترة

التي نعيش فيها مصاب بدوار شديد ، وقلق مرير ، وحيرة متزايدة ، فهو في حالة غير مستقرة لا يستطيع معها أن يتبصر الأمور أو يتخذ منها خيرها أو شرها .

فهؤلاء الدعاة الذين يسمون أنفسهم بما شاءوا من ألقاب ، فيدعون لازالة شرور الحياة من حرب وفقر ، أنما هم في الحق قوم يتجلون ويغالطون الأمم ويتربصون بها وهي في حالات نفسية قلقة . لأنهم لن يستطيعوا محو الفقر والحرب لأن الخير والشر عنصران متلازمان في الحياة لا يمكن محو واحد منهما .

فالعيوب التي نراها في الحياة انما هي قوانين ملازمة لقوانين مضادة لها . فهي كالسلب يقابله ايجاب . أو بعبارة أخرى هي كالتيار الكهربائي لا بد لانتاجه من تفاعل بين شيئين متضادين . فاذا انفرد الخير في الحياة كانت الحياة أنشودة تعلو الى السماء لا تستطيع أن تسير على الأرض في ثبات وقوة . وكذلك اذا استبد الشر بالحياة كانت الحياة جحيماً لا يطاق .

فن العبث أن نحاول محو الحرب أو الفقر . ولكن من الواجب الانساني أن نصرف جهودنا وما فينا من نزعات للخير الى معالجة أثر الفقر وتخفيف ويلاته . وان نؤجل دائماً نزعات الحروب ونبعدها قدر الطاقة عن طريق الحياة . وان نثير في الناس عوامل الخير والمحبة ، وأن نعمل على مقاومة الأثرة والانانية . فواجب علينا أن نعالج أثر الفقر ، ولكن لن نضيع جهودنا في الايحاء بمحو الفقر ، فلن تستطيع قوة بشرية ازالة نظام طبيعي مقرر في كيان نظام الحياة . فالحياة لن تستطيع أن تسير إلا بتباين الطبقات واختلاف المواهب والمقدرة على الانتاج ، والتساوي في هذه الحال حكم غير بريء لا يتفق مع العدالة الاجتماعية نفسها .

* * *

وكذلك الحرب ويل وشر ومقت وجوع ودم وانتقام . ولكن لا مفر للحياة منها . قد رأينا وقرأنا أن العالم لا يكاد ينتهي من حرب حتى يتجه الى حرب جديدة تأتي من طريق الذين قاوموها وقاسوها . بل إن الدعوة الى السلام عمل شاذ في ذاته ، وان كان جميلاً في دعوته . ودعوة السلام قد تؤدي الى حرب ، لأنها دعوة لا تطيقها طبيعة الحياة المنطوية على الأنانية والسيطرة والحقد والاضداد جميعاً .

فالحياة مجموعة أضداد لا شك في هذا ، وهي تسير وفق التفاعل المستمر بين كل ضدين. ولقد أصبحت هذه الأضداد شرائع تسير عليها الحياة ، فالذين يريدون أن يخلقوا من هذه الشرائع شريعة واحدة ذات صيغة واحدة ، انما يعالجون جانباً من الحياة دون جانب آخر . فالمصلح أو السياسي الذي يدّعي انه يعالج محو الاجرام أو الحرب أو الفقر ، انما هو رجل نظري أو فيلسوف لا أثر للحياة العملية في تفكيره إلاّ من حيث الشكل فقط .

* * *

فالذين يدعون الى محو الحرب يغالطون أنفسهم ويغرّرون بالناس جميعاً ، والذين بدءوا في أوروبا دعوتهم الاقتصادية المشتركة قد فشلوا وهم يسيرون الآن دون وعي منهم الى توطيد الملكيات الفردية وهدم ما قال زعماؤهم بالأمس ، بل انهم يتكلمون في صراحة عن وحي لتفكير امبراطوري قائم على الغلبة والسيطرة . وهذا يتنافى مع طبيعة دعوتهم الاشتراكية الاولى التي بدءوها منذ أعوام . والذين يبشرون بزوال الحروب نراهم في قلق من دعوتهم فيدعون الى سلام مسلح ! . فاذا كان السلام لا يعيش على الارض إلاّ في حماية السلاح والدبابة والطائرة والغواصة والقنبلة الذرية ؟ فأي سلام هذا الذي يرفرف على الحياة ؟

* * *

فالعالم يعيش في هذا العصر في حالة حيرة وتردّد ودوار مما أصابه من ويلات حرب دامت سنوات طويلة . العالم الآن مريض يعاني الآلام المختلفة وقد أصاب سوء الظن جميع زعمائه فلم يعد واحد يثق في الآخر . ولم يعد واحد منهم يستطيع أن يتجرد من النزعات الانسانية التي بدأت بها الحروب الماضية . فهل من الخير للعدالة والانسانية أن يقوم نفر من الدعاة للتبشير بمبادىء جديدة لا يستطيع العالم الحائر المريض المتردد أن يفكر فيها ، وان يفحص وجهي الخير والشر منها ؟ . ليس من شك في أن هؤلاء الدعاة هم أخطر العوامل التي بدأت تهدم في كياننا الاجتماعي وواجبنا أن نقاوم هذه الدعوات وان نعمل على علاج ما أصابنا من أمراض قبل أن يفتك بنا المرض ويتسع علينا الأمر .

محمود الخفيفي

د . د . ت

الهالوك الحديث للحشرات

أو ، كلورو ـ ديفنيل ـ تريكلورو ـ إيثان

الهالوك ، في القاموس ، سمّ الفأر ، ولقد اخترت هذا اللفظ علماً على المسحوق العصري السام الذي سأصفه في هذا المقال ، وهو خلاصة مما نشرته المجلات العلمية الأجنبية :—

كان أول نبأ قرأناه ، بشأن هذا الهالوك ، ما رووته الجرائد في أوائل سنة ١٩٤٤ إذ شرعت قوات الدول المتحالفة في الحرب الثانية ، تنفر به أهالي نابولي ، من هامات رؤوسهم الى ضيقاتهم ، بغية إبادة القمل من أجسامهم ، وكان هذا الهالوك يجلب من أمريكا بالطائرات ليستعمل في تطهير الإيطاليين . فطهروا به مليوناً وربع مليون منهم في ذلك الشهر وحده . فأتيح لهم بهذه الوسيلة قمع وباء حمى التيفوس ، الذي كان يهدد السكان جميعاً . وكان هذا المسحوق السري الجديد المبيد للقمل يسمى د . د . ت . ولا جدال في كونه قد أتى بالفائدة المنشودة . وهذا إلى جانب إهلاكه للحشرات لا تحصى ، مما يحيط بالناس ، فينغص عليهم عيشهم . فاذا ما رشّ امرؤٌ بعضاً من هذا الهالوك ، على أي ذَرىً (٢) مما يستذري به في مسكنه ، فانه يقتل كل ذبابة تمشي عليه ويدوم هذا المفعول ثلاثة أشهر . ولو عالجت به بطانية صوفية فصلتها ثم جففتها وكررت هذا العمل الثلاثي ، ثلاث مرات ، ثم جئت بخمس وعشرين عثة ووضعتها على شقة من البطانية عينها ، لا تزيد مساحتها على ثلاث عقد أصبع ، فانها لا تلبث أن تهلك بدلاً من التهامها وبر البطانية .

---

(١) تفضل بالاطلاع على هذا المقال حضرة الاستاذ محمد سليمان الزهيري بك مدير قسم الحشرات بوزارة الزراعة فقرر ان كل ما ورد به ، صحيح بحسب ما أسفرت عنه ابحاث والتجارب المحلية

(٢) الذرى ، وزان الحصى — كل ما يستتر به الشخص . وتذريت بالشيء استترت به . وبفلان أو في ظل فلان وفي ذراه أي كنفه وستره وذلك . واستذرى بالشجرة استظل بها وصار في ذراها . واستذرى بفلان التجأ اليه وصار في كنفه . ويدوع أيضاً استعمال كلمة مرشة (دروة)

وإذا رششته في حديقتك مرّة واحدة ، قتل الخنافس اليابانية قتلاً يستمر أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، وإذا رششته على النبق استأصل شأفته من الآفات القديمة جميعها ، وليس هذا فحسب ، بل قد يدوم تأثيره تسعة أشهر على الأقل فلا تظهر في الفراش أية بقة جديدة في خلال هذه المدة .

ويعتقد علماء الحشرات التابعين لحكومة جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية ، الذين عهد اليهم في دراسة تأثيرات د . د . ت انه من أصلح المواد التي أثمرتها الحرب الطاليسة لأزمان السلم . وبلغ من إعجابهم بخطورة هذا تناشجه أن شبهوها بفوائد الملاريا بمقاديرها السلفانيلاميد والبنيسيلين .

ومما ينبغي ذكره إثباتاً للحقائق التاريخية والعلمية ، أن هذا المركّب المبيد للحشرات ، قد تمّ اختراعه في المانيا منذ سبعين سنة . ومخترعه شابٌّ ألمانيٌّ تخرّج في إحدى جامعات بلاده ، ولكن لم يكترث له الناس (أي الهالوك) من ذلك الحين حتّى حلّ فصل صيف سنة ١٩٤٣ . وكذلك لم يكن مخترعه يدري مبلغ ما سوف يجنيه الملأ من منافع مسحوقه في الجيل الحالي. وما يقال بهذا المخترع ينطبق أيضاً على هتلر والشركة السويسرية التي تصنع المركب عينه ، وهي شركة جيجي المتحدة Geigy Inc التي نالت رخصة بصنعه في سنة ١٩٣٩ بصفة كونه مبيداً للعث والسوس بيد أنها لم تستطع استغلاله كما يجب . فحدث قبل سنة ١٩٤٢ أن قام كبير جرّاحي الجيش الامريكي ، ووزارة الزراعة الامريكية ببحثٍ مستفيض بنية اختراع مهلك حشريٍّ شديد جداً فباءوا بالفشل . وما من شك أن الأوبئة كان لها فصل الخطاب ، في المعارك الحربية ، أكثر من قواد الحرب أجمعين في تاريخ العالمين بأسره .

ذلك أن جيوش أمريكا غدت تقاتل في ميادين حربية كانت أهد أرجاء المسكونة تلوّثاً بالحشرات والأدواء على حين كان الروتينون Rotenon قد انقطع وروده من جزائر الهند الشرقية كما دخل الوارد من عود القرح فلم يرَ علماء حشرات وزارة الزراعة الأمريكية وكيميائيوها الباحثون مناصاً من اختراع تركيب عشرات من المساحيق القاتلة للحشرات ثم تجربتها . وكان بين هاتيك المساحيق المهلكة التي أتيح لهم الحصول عليها خلسة في أواخر اكتوبر سنة ١٩٤٢ رطل واحد من صنع شركة جيجي المهلك للعث والسوس ، وذلك من

صوبسرا عن طريق السفارة الأمريكية تحت بصر هتلر ورغم أنفه .

وجربوه أولاً في إبادة خنافس القول المكسيكية فلم ينجح . ثم اختبروه في إهلاك حشرات أخرى فأحرزوا نتائج طيبة ، شجعت خبراءهم على مواصلة تجاربهم في أربعين مركزاً من مراكزهم الزراعية المنتشرة من سواحل الاطلنطي الى شواطىء المحيط الهادي ، فتمكنوا قبل حلول مايو سنة ١٩٤٣ من جعله مالوكاً فائقاً للقمل . وشرعت شركة ديبون في صناعته في مصنع جديد خاص أنشأته لأجله وأنفقت عليه نصف مليون دولار ، وذلك بعد حصولها على الترخيص اللازم من شركة جيجي .

ومن ذلك الحين قام الجيش الأمريكي بتوزيع هذا المالوك توزيعاً مباشراً بطائراته في مدينتي نابولي والقاهرة وآفاق المحيط الهادي . وفرض على كل جندي عمل علبة تحتوي على أوقيتين منه ليضفر بها ثيابه قصد إبادة ما يعلق بها من القمل الكبير جميعه ، فيستمر مفعول المالوك فيها ثلاثة أسابيع على الأقل . وكانت هذه الفترة كافية لقتل كل ما يتولد في خلالها من صغار القمل أيضاً .

وعند ما وصل مسحوق د . د . ت الى بلاد أفريقية في سنة ١٩٤٣ طفقت القوات الأمريكية تعفر به البدو وقاية لهم من وباء التيفوس . والبدو كغيرهم من الخلق عرضة لهجوم القمل ما داموا لا يستحمون . ولا عجب فقد بلغ عدد الذين أصيبوا بحمى التيفوس من أهالي الولايات الفرنسية في شمال أفريقية وحده في سنة ١٩٤٢ أكثر من مائة الف شخص

ولما قام الجنود الأمريكيون بتعفير فوج من البدو بالمالوك المشار اليه حملوا يشعرون بالارتياح إذ أصبحوا غير مضطرين الى خمش أجسادهم « هرشها » لأول مرة في حياتهم .

وبلغ من إنشاط أولئك الأعراب بنتيجة هذا المسحوق المبيد للقمل أنهم أقبلوا به في أرجاء بلادهم ، فنال أحسن التقدير فأخذ القوم يرعون طائفين مختارين زرافات ووحداناً الى مراكز التعفير والتطهير . فأمها أولاً الآباء وأبناؤهم ثم الأزواج وزوجاتهم . واشتد الاقبال عليها من النساء عامة حتى بلغ عدد الأعراب في أحد المراكز الخاصة بالتطهير ذات يوم ألف نفس . وكانوا يقفون صفوفاً طويلة حيث كان المرء يعبر كلاً منهم ماكثاً على حك بشرته قبل تعفيره .

ومن طبائع النمل أن يعمد مرتين في اليوم الى امتصاص الدماء من فريسته ، ليتغذى بها ، فاذا فقد قريبه منها تمكن من نشر التيفوس في بيئته ، هذا اذا كان ملوثاً بجراثيم تلك الحمى من قبل . ومن دأب النمل أيضاً أن يحتشد حول آباط المرء وأربيته ، لأن ذينك المخبأين دافئان ليّنان . ولذلك أعدّ الامريكيون لما طبعوا عليه من الذكاء ، منافيخ ذات أذرع هي خراطيم من المطاط تمتد على ظهر الشخص وفوق أكمام ملابسه وفي بنطلونه وسرواله . فكنت تراهم حيث يجتمعون بتكأكأ حولهم الاعراب طالبين المناعة من النمل

ومما رواه شاهد عيان في هذا الصدد أنه رأى فرقة ابادة النمل تحل في بلدة أقيم فيها عرس بدوي ضخم فوقفت الفرقة الحفل وبدأت تؤدي عملها ، حيث اصطفّ المدعوون جميعاً وعلى رأسهم العروسان وحينئذٍ أدير منفاخ المالوك وسار يقذف ذلك المسحوق على أجسادهم وثيابهم حتى انتهت عملية التطهير ، فانفرط عقد الاجتماع ، وأخذ العريس عروسه مطهرة من النمل .

وتبين للخبراء الكيميائيين أن المالوك الذي أخذ من أسرى الالمان ، كان أضعف مفعولاً من المالوك الامريكي ولذلك كان تطهير أولئك الاسرى من النمل أول واجب يقوم به الامريكيون نحو أسراهم ويمتاز د. د. ت على غيره من الهواليك بدوام تأثيره زمناً أطول منها جميعاً . فساحين عود القرح مثلاً المبيدة للحشرات تفقد خاصيتها بعد انقضاء يوم أو يومين . والروتينون يفقدها في ثلاثة أو أربعة أيام . على حين أن مركبات الزرنيخ والفلوريد انما تقتل الحشرات عند أكلها اياها لا غير . أما النيكوتين فيهلكها بمجرد رشها عليها رشاً مباشراً . وهذا بينما د. د. ت يبيدها في الحالتين كلتيهما ، سواء أكلته أو لمسته فلا يضطر مستعمله الى رشه رشاً مباشراً على الحشرات التي يحتاج الى اهلاكها ، بل حسبه أن يخلط القماش الملوث بهذا المالوك بغيره من السليم فيقضي عليه .

ولهذا السبب يبيد د. د. ت الحشرات الطبيعية ومنها سوس الفاكهة المعروف باسم السوس الشرقي الذي يلتهم الخوخ . أما السموم المعدنية القديمة التي كانت مستعملة لمقاومته فلم تجد نفعاً لأن تلك الديدان عند ما تنقض ، لا تلبث أن تزحف نحو أعناق الفاكهة حيث تلتقم

عجمها . أما السموم التي تؤثر بالمس فهي وقتية لأنه ينمحي وضعها في الميعاد الذي تتلف فيه الديدان حيث تشرع في الزحف . ولكن د . د . ت اذا رش في ذلك الموضع من قبل ، ظل مفعوله ثابتاً حتى اذا تلف الدود ، اتى فيه حتفه . ومن أشد الحشرات فتكاً بالزراعة دودة التفاح وهي حشرة صغيرة عديمة سنجابية اللون تعلو جلدها بقع سمر جميلة ويخيل لناظرها أنها عادمة الضرر ولكنها تلك دودة بيضاء هي التي كثيراً ما يراها الانسان في باطن التفاحة حيث تفسدها فساداً يفضي الى كساد سوق التفاح فتبلغ خسائر زراعه ملايين الجنيهات سنوياً .

وذلك أن فراشة التفاح تبيض بيضها على أزهاره فيفقس البيض أساريع . وعند ما تتكون التفاحة في قاعدة زهرتها تلتهم هاتيك الأساريع قلبها ، فترى التفاح الذي تسطو عليه الأساريع يتساقط من أشجاره قبل نضجه بزمن طويل . ومتى نقبت قلب التفاحة غادرتها وجعلت تنسج حول نفسها شرانق من خيوط حريرية دقيقة تتعلق بها تحت لحاء أشجار التفاح . ثم تظل في هذا الدور من أطوار حياتها وهو طور الزق نائمة مستكنة حتى تتحول فراشاً . ويشاهد الطائر المسمى نقار الخشب يلتهم أفواجاً من هذا الفراش . وعند ما يصير الزق فراشاً ينطلق من شرانقه طائراً الى أزهار التفاح ليبيض عليها استعداداً للفصل التالي . ويبدأ ظهور الفراش في يونيو . ولإبادة الأساريع يرش زراعو الفواكه أشجارهم بمحلول أخضر باريس أو بزرنيخات الرصاص وذلك عند ما تبدأ الأزهار في التساقط . وقد حيّرت هذه الحشرة زراع التفاح في الأقاليم الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية . فيضطرون كل سنة الى رش بساتينهم من خمس الى تسع مرّات بالمساحيق القتالة للحشرات وقايةً لمحصولاتهم من غوائلها . ولا يخفى ما يتطلبه ذلك الرش من فادح النفقات . وهذا يرجع الى كون زرنيخات الرصاص التي تستعمل لذلك القصد تزول عند ما يتساقط عليها الماء . وأما د . د . ت فهو على النقيض من ذلك يتمسك بها فتصبح حاجة الزرّاع الى رشها به أقل منها بسواه . و د . د . ت يقتل النحل كما يفتك بغيره من الحشرات ولذلك يفرض على مستعمله اتخاذ الوسائل التي تفضي الى الانتفاع به واجتناب ضرره

عوضه مبشر

مكتبة المقتطف

الملك

محمود حسن اسماعيل — ١٩٠ من من الحجم المتوسط — شركة فن الطباعة

ليس أحبّ الى المصريّ من اسم « الفاروق » ، وليس أقرب الى فؤاد كل من روى ظمأه بماء النيل من المليك الجليل الجالس على عرش مصر .

فقد وضع الفاروق — حفظه الله — منذ اعتلى أريكة العرش خطة لنفسه لا يزال يعمل جاهداً على تحقيقها . فجلالته يروم أن يسعد شعبه ليسعد هو ، ويبغي أن يرفع مستواه المعيشي والصحي لتقرّ عيناه ويبشّ وجهه . إن المليك أعلن الحرب على أعداء الوطن : تلك الجهالة الفاشية ، وذلك الفقر الضارب أطنابه ، وهذا السقم الذي يتسلل الى الأبدان فيضعفها. فهو جلالته الحرب وحرض على تشجيع كل من يسهم في مكافحة تلك الأدواء الثلاثة رغبةً منه في توفير الرفاهية لشعبه وتمكينه من أن يعيش في بحبوحة سابغة .

تلك المآثر الجليلة الحميدة التي يزجيها المليك الى شعبه موصولة غير منقطعة ، وهذه الرغبة الأكيدة في الأخذ بناصرة « الفلاح » رمز المصري ، وجدت صدًى من أصدائها الكثار في شاعرٍ رقيق العاطفة مرهف الحسّ ورد على العاصمة من الريف وفيه ميل وحب عظيمان للريف وأهله ، وعطف على أهليه من الفقراء والمعوزين ، فلم يسع الشاعر إلاّ أن يترجم تلك الأصداء في قريضٍ ينظمه ، وشعر ينشده . ومن تلك المنظومات يتألف ديوان « الملك » الذي أخرجه الاستاذ محمود حسن اسماعيل أخيراً .

وهل أجمل في التعبير عن مكنونات هذه العاطفة المتأججة من أن يقول محمود في إهداء كتابه للمليك :

« من القرية التي خضت ظلامها وأسقامها حتى طرقت باب الكوخ بيمينك لتطعمَ على حياة شعبك ، فمددت ساعد الفلاح والعامل ، ورقأت دمعة البائس والسقيم ، ونفضت غبار

الذلّ والمسكنة عن هؤلاء الذين طرحتهم عبودية الفقر والجهالة في كهوف النسيان ... »

« وهل أوقع في النفس من أن ينقذ الداعر :

كم بائسٍ كنت صرخاتٌ لكربته لولاك من دمعه يروى وبقتات
وكم عنيّ الثرى عاري الأديم مضت رفرافة منك تحييه السعادات
وكم خريفٍ على الأكواخ أهلكه ندالك فهو رياحين وإيمكات
عطفٌ وبرٌّ وإحسانٌ ورحمةٌ يا قوم من هنا تزكو العبادات »

ولو رغبنا في الاستدلال بكل ما سجله الشاعر عن برّ المليك بالمعوزين والمكروبين ، لاحوجنا نقل معظم ما اشتمل عليه الديوان . ولكن يكفي أن نجمل الاشارة فنقول إن الشاعر تحوداً أخذ بكل عملٍ خيري نهض به الفاروق يوحي من عاطفته الواعية الرحيمة ، فسجل رعاية جلالته لمشروع مكافحة الحفاء ومشروع يوم المستشفيات وزيارته لمديريتي قنا وأسوان لمواساة المرضى وتوزيع المؤن عليهم وانقاذهم من ويلات الداء . واذا كانت آلة التصوير تنجح في تصوير تلك المآثر الملكية فان الشعر يفضلها في تصوير الدوافع النبيلة التي أوحت الى سيد البلاد بأن يعنى بأحوال شعبه ، تلك الدوافع التي لم يستطع المليك أن يكتمها أو يخفيها .

***

والشاعر لم يكد يرى المليك فاروقاً يرعى العروبة ويعتزّ بها ويتصدّر الداعين اليها حتى سارع الى نظم انطباعات ذهنه بلغة الشعر التي يجيدها ، فسجل اجتماع رضوى بين أهلي مصر والجزيرة العربية قائلاً :

عودي واحكي لي عن نجوى متعتها الريح على « رضوى »
لجراح الشرق غدت سلوى وحديثاً في الدنيا يروى
عن أول ضيف للعرب
لقيته جبالهم كتبي
مجهول الزورة مرتقب
نجأ الصحراء بعيداً ما كان بخاطرها يسطوى
فاروق ! وأنت على العرب أحنى من قلب أمٍّ وأب
جمعت هواهم في سببٍ ووصلت به خطو الشهب
ولقد وحّدنا في البلوى

عهدٌ كالصحرة أو أقوى
تُطوى الأعمار ولا يطوى
وتمر جميع الآباد وصداه يمر على الحقب

وسجل عطف الفاروق على فلسطين المجاهدة الأبية ومناصرته لها في هدائدها وكفاحها للحصول على أمنياتها فقال :

هذي فلسطين تعلي في مراجلها كأنما قذفت في جوف بركان
تلفت القدسُ فيها شاكياً فصحت أنوار ملكك في عطف وتحنان
ترعى وترحم والأقدار شاهدة وفي يمينك للاسلام سيفان

وحيا الشاعر ملكي مصر والعراق لدى التقائهما من عامين وحمد للميثاق الشقيق أوزرته التي غرست في ساحة الفاروق ريا لعرى الصداقة الوثيقة والمودة الأكيدة بين القطرين .

ولم ينسَ الشاعر أن يسجل لجلالة الملك برّه بشط النيل الأعلى ؛ فتحين مناسبة افتتاح خط التلفون بين القاهرة والخرطوم وتحادث الملك مع حاكم السودان العام ، ونظم قصيدة من عيون الشعر عنوانها «أصغى لك السودان» قال فيها :

بالمفصح والقيسان
والدوح والأغصان
والموج والشطآن
أصغى لك السودان

واسترعى نظري في ديوان « الملك » أن محمود حسن اسماعيل يكثر من مطالعة الكتب المقدسة دون الاقتصار على واحد منها ، ويستشهد بها في كثير من شعره ، وهو في هذا شبيهٌ بالشاعر أحمد شوقي بك . ومن ذلك على سبيل المثال قوله :

كل الطبيعة في الفلسطين زاهرة وأنت «داوودها» : لم يروك السيرُ

وقوله : قالوا : روى الموتُ بالراهم ! فقلت لهم وكاب «عيسى» يردُّ الموتَ كذّابا

وقوله : بزورقٍ كنتَ «عيساها» وبي حذرٌ لولا جلال الهدى أدعوك رحمانا !

وقوله : من أرضهم شمّت رسالة « أحمد » بالنور لا بالسيف عنه تناضل

وقوله : وناي « داود » من قديم يرنُّ في سفحه صداه

وقوله : وردّدتك « منا ميراً » نوافلها كأنها أنت «موسى» وهي «توراة»

والحق إن المحاولة التي قام بها الأستاذ محمود حسن اسماعيل في تدوين شعور المواطن المخلص إزاء المليك الجليل ، محاولة تستدعي الإعجاب ، لأنه نظم من بعض نفسه قلادة للفاروق ، ونسج من عواطفه طرزاً فاخرة ، وسكب من دمه غناءً يفيض للدنيا بحب المليك والولاء له » . وليس هذا الشعور الصادق شعور مصري فحسب ، بل شعور كل عربي فاجأته مآثر الفاروق واستحوذت على إعجابه ، واغتصبت منه الحبّ اكيداً .

وربيع فلسطين

الأزهر بين الماضي والحاضر

تفضلت مجلة « المقتطف » الغراء الزهراء فنشرت في عددها الصادر في شهر أبريل من سنة ١٩٤٦م ملحقاً أدبيًّا تاريخيًّا عنوانه «الأزهر بين الماضي والحاضر» وقد كتبه فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ منصور علي رجب أستاذ الأخلاق بكلية أصول الدين الإسلامي بالجامعة الأزهرية ، وبذلك أسدت مجلة المقتطف إلى الأزهر والأزهريين ، بل إلى الإسلام والمسلمين يداً بيضاء ، وجميلاً مذكوراً ، لأنها مهدت بنشر تلك الدراسة الواسعة عن الأزهر في ماضيه وحاضره السبيل لدراسة أحوال الأزهر ومعرفة ما يتعلق به وما يرجى منه وما يعلق عليه من آمال ، أمام أولئك الذين لم يتصلوا بالأزهر عن قرب ، ولم يعرفوا من أموره وأسراره شيئاً ذا بال ، ويزيد هذا العمل جلالة وقدراً حينما نذكر أن قرّاء المقتطف الغراء جمهرة كريمة من الأدباء والعلماء والمثقفين ، فهذا بلا هناك نصر كبير للأزهر ، وفائدة كبرى لنشر صفحات مطويات من تاريخ هذا المعهد العتيق !! .

ولقد تحدّث فضيلة الأستاذ منصور علي رجب حديثاً حسناً محكماً عن الأزهر وتاريخه المادي والعلمي والتعليمي والديني ، وذكر أشهر الكتب التي تدرس في الأزهر ، وتحدّث عن مجلس الأزهر الأعلى ، وعن المعاهد الدينية ، وعن شيوخ الأزهر وطلبته وميزانيته وخريجيه ومكتبته ، والاتجاه الحديث للأزهر ، وكيف ينبغي أن يكون ، تحدّث عن هذا وعن غيره حديثاً جذّاباً ، في عبارة واضحة وعرض أخاذ ، فله من أبنائه وإخوانه الأزهريين هتافاً وشيوخاً أخلص الحمد والشكر على ما قدم من صنيع خالص لوجه الله ووجه الأزهر الشريف . إلاّ أن لي بعض ملاحظات على هذا البحث النفيس أرجو أن يتقبلها الأستاذ الجليل بصدره

الرحب ، وليس أني لا أريد بهذه الملاحظات طعناً أو نقداً ، وإنما هي تعليقات سريعة بدت لي في أثناء المطالعة فرأيت أن أنشرها في المقتطف حيث نشر بحثه لتكون كفاتحة لما بدأ . إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

١ — لقد أعجبت كثيراً بمقدمة الاستاذ الكبير اسماعيل مظهر رئيس تحرير مجلة المقتطف التي قدم بها هذا البحث ، إذ كان صنيعه مشكوراً مأجوراً حيا أثبت هذه الصورة الرائعة الخالدة التي أرسلها أمير الشعراء لتردّدها ألسنة الدنيا ويكررها فم الزمان ، وكأن الاستاذ اسماعيل قد أراد أن يستدرك في لطف ورقة على الاستاذ منصور ، إذ ما كان يجوز له بحال من الأحوال أن ينسى في مقام الحديث المفصل عن الأزهر هذا القصيد المجيد ، فقصيدة شوقي في الأزهر قلادة فريدة يتيمة لن يزيدها كرّ الليالي ومرّ الأيام إلا ذيوعاً وانتشاراً ، وكيف ينسى الأزهريون قصيد شوقي في جامعتهم الكبرى وهو يقول :

واخشع مليّا واقض حقّ أئمة طلعوا به زُهْراً ، وماجوا أبحرا
كانوا أجلّ من الملوك جلالةً وأعز سلطاناً ، وأنفم مظهرا

ويقول مخاطباً الأزهر الشريف :

يامعهداً أفنى القرون جدارُه وطوى الليالي ركنه والأعصرا
ومشى على يبس المشارق نورُه وأساء أبيض لجها والأحمرا

ويقول مخاطباً جموع الشباب الأزهريين :

يافتية المعمور ساء حديثكم فدًّا بأفواه الركاب وهنبرا

. . . . . .

هزُّوا القرى من كهفها ورقيمها أنتم لعمر الله أعصاب القرى !

٢ — لاحظت أن الكاتب قد ذكر في الصفحة الثامنة سلسلة المراجع والمصادر التي استق منها بحثه ، وألاحظ أن بعض هذه المصادر لم يكن هناك داعٍ للتطويل بذكره ، إذ أنه لم يستفد منه إلا التافه اليسير ، وإذا كان المؤلف حريصاً على التدقيق في هذا فكان الأولى أن يذكر كل مرجع عند الاستفادة منه ، ولو في هوامش الصفحات ، حتى يكون القارىء على علم بما نقله الأستاذ من هذه المصادر !

٣ — نقل المؤلف في صفحة (٢٣) ذلك المرسوم الملكي الذي أصدره الملك الظاهر برقوق والذي كان يقضي « بأن من مات من مجاوري الأزهر من غير وارث شرعي، وترك موجوداً فإنه يأخذه المجاورون بالجامع » . وقد كنت أتمنى أن يقف المؤلف أمام هذا المرسوم ونفة طويلة ليستخلص منه عبرة وتذكرة يذكّر بها إخوانه الأزهريين، علّ ذلك يكون باعثاً لجمع أشتاتهم وتوحيد صفوفهم، وحبذا لو كان المؤلف قرن هذا بذكر العظات الاسلامية التي تتصل بهذا الموضوع كحادث المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار؛ فانه مما يصدع القلب ويرمض النفس أن تدب عقارب الشقاق والاختلاف بين صفوف الأزهريين وهم الأماثل الأفاضل، فيكون لها خطير الآثار ! . .

٤ — في صفحتي (٢٥ و ٢٦) تحدث المؤلف عن الأروقة في الأزهر، وذكر أسماء كثيرة لها: بعضها معروف للناس وبعضها مجهول، وقد كنت أحب أن يبين الأستاذ ما بقي من هذه الأروقة الى الآن، وما زال منها أو اندثر أو تحوّل، وحبذا لو أن الكاتب بنى حديثه عن هذه الأروقة على مشاهدة شخصية لها يقوم بها حتى يتعرّف مواضعها وهيئاتها، فيكون حديثه حديث رؤية وعيان.

٥ — في صفحة (٢٩) ذكر الأستاذ المؤلف طرفاً من ذكر الشيخ الجليل والمجاهد الاسلامي العظيم والداعية الصادق عز الدين بن عبد السلام، ولكنه لم يذكر إلاّ شيئاً قليلاً ولعزّ الدين مواقف كثيرة مشهورة، حبذا لو عطر المؤلف بها بحثه النفيس، وخصوصاً ما يروى عن عزّ الدين في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدفاع عن الحق، ومدق الجهاد للباطل !

٦ — ذكر المؤلف في صفحة (٤٦) وما بعدها الكتب التي تدرس في الأزهر، ولم يبين لنا هل يريد بذلك الكتب التي كانت تدرس في الأزهر قديماً، أو التي لا تزال تدرس الى اليوم، وقد أوقعني ذلك في حيرة كبيرة، لأن المؤلف قد ذكر كتباً ليست موجودة الآن، أو لم ترجد، ولي كتباً هي تدرس الآن، فمثلاً لم يذكر في كتب النحو « أوضح المسالك » لابن هشام مع انه يدرس الآن في القسم الثانوي، وفي الصرف لم يذكر كتاب « هذا العرف » ولا المذكرات الأخرى التي وضعها الأساتذة مثل « دروس التصريف »

للشيخ محيي الدين و « تصريف الافعال » للشيخ عنتر و « تصريف الأسماء » للشيخ الطنطاوي وغيرها . وفي علوم البلاغة لم يذكر كتابي « زهر الربيع » و « حسن الصنيع »، وفي التفسير لم يذكر تفسير « الكشاف » مع انه مقرَّر في كلية اللغة العربية حرسها الله سعتلاً للغة القرآن وأدب العرب ، وفي الحديث لم يذكر « صفوة صحيح البخاري » ، وفي الفقه لم يذكر كتابي « الاختيار » و « الهداية » . وقد ذكر في فقه الحنفية كتاب « كنز الدقائق » وهو غير موجود ، وشرح الحصكفي وهو غير موجود ، وكذلك كتاب « غرر الأحكام » . والكتب الأزهرية في الواقع باب واسع يحتاج الى بحوث وبحوث ، وجميل لو فكرت مشيخة الأزهر الجليلة في اقامة معرض للكتب الأزهرية على غرار « معرض الكتاب العربي » الذي أقامته وزارة المعارف في شهر يونيه سنة ١٩٤٦ م ليستطيع هذا المعرض أن يقدم للناس صورة مفصلة عن الكتب الأزهرية وموضوعاتها وأشكالها وتطورها وما يتصل بها .

٧ — في صفحة (٥٥) قال المؤلف ما نصه : « بعد ذلك تعرض الأدوار التي مرَّت بالأزهر حتى وصل الى ما هو عليه الآن من نمو بفضل البذرة التي بذرها السيد جمال الدين الأفغاني ، وتعهدها من بعده تلميذه الامام الشيخ محمد عبده ، ويقوم الآن على حراستها وإنمائها تلميذه المخلص الاستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق » !! .

- وأين المراغي إذن أيها الأزهري المنصف ؟ .. ولماذا لم تذكر اسمه في هذه السلسلة ، وهو سابق على شيخ الأزهر الحالي ؟ .. الواقع الذي لا يجادل فيه أن حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الامام المراغي — منذ جدَّه الغيث — قد جاهد جهاداً كبيراً في اصلاح الأزهر ، فهو الذي سهر على الكليات الازهرية ، وهو الذي بعث البعوث ، وهو الذي ضاعف الميزانية ، وهو صاحب الدروس الدينية ، وهو مصلح الوعظ والارشاد ، وهو منظم البعوث الشرقية الى الأزهر . ولو كان المجال مجال الحديث عن المراغي لأفضت بتفصيل في تعداد مآثره ومفاخره ، ولكني أكتفي بأن أعتب عليك لأنك لم تخصه بمثل ما خصصت به منه أو من هو دونه بالحديث والتقدير :

لا تظلموا المرتى وإن طال المدى إني أخاف عليكم أن تندموا !

٨ — في صفحة (٥٦) بدأ الحديث عن مراحل التعليم في الأزهر الشريف ، وتحدث عن علوم القسم الابتدائي ، ولكنه لم يذكر ما يشترط في الطالب لقبوله في هذا القسم مثل حفظ القرآن الكريم وتجويده ، ومعرفة القراءة والكتابة ، والاحاطة بقواعد الحساب الأولية ، وتجويد الخط ، والاملاء .

* * *

وقد ذكر في هذه الصفحة نفسها العلوم التي تدرس في كلية اللغة العربية فترك منها المطالعة والمحفوظات والانشاء .

وذكر العلوم التي تدرس في كلية الشريعة فذكر بينها « آداب اللغة العربية وعلوم البلاغة » وهي غير موجودة الآن ، وفعل مثل ذلك أيضاً عند ذكر العلوم التي تدرس في كلية أصول الدين .

٩ — في صفحة (٥٧) تحدث عن الشهادة الثانوية الأزهرية فقال إنها « تمنح لمن أتموا دراسة القسم الثانوي ، وتخوّل صاحبها الاندماج في الكليات » وهو يقصد الكليات الأزهرية . والواقع أن هذه الشهادة لا تخوّل صاحبها هذا فقط ، بل تخوله أيضاً الدخول في بعض كليات الجامعة الفؤادية ككلية الآداب وكلية دار العلوم ، أو الدخول في مدرسة الصيارفة .

١٠ — في صفحة (٦٤) تحدث عن الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الأزهر المتوفى سنة ١١٧١ هـ . ثم تحدث بعد ذلك عن ديوانه المليء بالغزليات والنسيب ، ثم أورد له تلك القصيدة التي تسيل رقة وعذوبة ، والتي ذاعت على ألسنة المغنين ، ومطلعها :

وحقك أنت المنى والطلب وأنت المراد وأنت الأرب

وكنت أتمنى أن يقف الأستاذ المؤلف أمام هذه القصيدة الغزلية الرقيقة التي ينظمها شيخ الأزهر وإمام المسلمين ، ثم يستخلص من هذا درساً يعلم فيه الأزهريين أن الوقار لا ينافي الشعر ، وأن الأزهرية لا تناقض الأدب ، وأنه من الواجب على ولاة الأمر في الأزهر الشريف أن يعيروا كل العناية بالناحية الأدبية في الأزهر ، وذلك بتشجيع الأدباء ومساعدة المؤلفين ونشر الكتب الثقافية وتنظيم المحاضرات وإصدار المجلات في كل كلية

وكل معهد . فرأس مال الأزهري في المياه هو لسانه وقلمه ولن يسلم اللسان ولن يستقيم القلم إلاّ بالأدب .

١١ — في صفحة (٦٦) ذكر من مشايخ الأزهر الشيخ أحمد المرصفي ، وقال إنه من « منية عروس » وصحتها « منيل عروس » وهي بلد أخي الاستاذ زكي مبارك خريج كلية اللغة العربية حرسها الله معقلاً للغة القرآن وأدب العرب .

١٢ — ترجم المؤلف في صفحة (٦٩) للمغفور له الامام المراغي ترجمة وجيزة لا تليق بالمراغي العظيم الذي لم يخف المصاب فيه بعد ، وخاصة إذا قارنا هذه الترجمة بترجمة المؤلف للأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر الحالي ، فقد أفاض في الأخيرة ، على الرغم من أن ذكر الشيخ مصطفى قد تردّد خلال الكتاب أكثر من عشر مرات ، تارةً بإيجاز وتارةً بإسهاب!

١٣ — ألاحظ أيضاً أن المؤلف حينما تحدّث عن مكتبة الأزهر ومحتوياتها لم يتحدّث عما تحتاج هذه المكتبة من ترتيب وتنظيم وتيسير وبناء جديد ، حتى ينتفع بها الناس ، وكذلك لم يذكر عند حديثه عن الكليات أماكن هذه الكليات حتى يعرفها من لم يشاهدها ، وكذلك لم يتحدث بإفاضة عن المدينة الأزهرية وما يجب أن تحتوي عليه من معاهد وملاعب ومساكن وقاعات ومرافق .

١٤ — في صفحة (٨٠) قال المؤلف : « وهنا لا أقصد أن يحرّم على الطلاب الاشتغال بالسياسة فهذا حق من حقوقهم ... » . وكان الأجدر بالاستاذ أن يفصل هنا معنى السياسة التي يريدها ، لأننا في الواقع نختلف كثيراً حول تحديد معنى السياسة ، فان كان المراد بها هو خدمة الوطن والعمل لوجهه ، وإجابة داعيه حين يجد الجد وتتأزم الأمور فهذا حق بل هذا واجب مقدّس على كل وطني ، وإن كان المراد بها هو المظاهرات والتحطيم والحزبية والتفرق والتشدق بالألفاظ والخروج عن الحدود ومجاوزة الاختصاص فهذا شرٌّ يجب التعوذ منه ، وهذا هو الذي دعا الشيخ محمد عبده الى أن يذم السياسة والساسة وعادة ساس يسوس فهو سائس ومسوس الخ .

١٥ — هذا وقد ختم المؤلف بحثه بالآمال التي يرجو أن تتحقق ، والاصلاحات التي

يجب اجراؤها كي ينتظم الأمر في الأزهر ، فمن يسمع لي الأستاذ الفضال أن أضيف الى ما ذكر أنه يجب أن ينظم التأمين الصحي وتنظم الوحدات الصحية العلاجية في الأزهر ، ويجب أن تقدم وجبة الغذاء للطلبة حتى تضمن لهم غذاء صحيًّا ، ويجب أن تصرف للطلبة جميع الكتب والأدوات التي يحتاجون اليها كل عام ، حتى لا يحدث الاضطراب أو الاهمال في الواجبات المدرسية ، ويجب أن يكون لكل كلية مجلة ، بل لكل معهد ديني مجلة ، ولكل كلية نادٍ أدبي اجتماعي لائق ، ويجب أن ينظم الاتصال العلمي والثقافي بين الأزهر ، وجامعتي فؤاد وفاروق ، ويجب أن يكون لكل كلية ولكل معهد مسجد كبير تقام فيه الصلوات والجمع ، ويخطب فيه الأساتذة والطلاب ليمرنوا فنون الوعظ والإرشاد ، ويجب أن يعنى داخل الكليات والمعاهد بالعبادات الدينية اليومية ، والمظاهر الإسلامية والتقاليد العربية الكريمة ، ويجب أن تحد من حرية الطالب فقد جعلته الظروف الأخيرة أشبه بمستبد لا يعرف له رادعًا أو واجبًا ، وبالجملة يجب على الأزهر أن يعنى باستكمال المظاهر الجامعية ، دون اغفال الإصلاح المعنوي حتى يستطيع الأزهر أن يسير على طريق لاحب واضح ، فيؤدي رسالته ، ويشارك في توجيه العالم ! .

أما بعد ، فأكرر فكر الأستاذ الجليل منصور علي رجب على بحثه ، إذ هو أول أزهري فيما أعلم حاول التأريخ لجامعته الكبرى ، وأرجو أن يسارع إخوانه أساتذة الأزهر بالسير على منواله والاقتداء به فنرى منهم من يكتبون عن معاهدنا وكتبنا وشيوخنا وعيوبنا وحسناتنا وماضينا ومستقبلنا ، كما أرجو ألاّ يقتصر الأستاذ منصور على ما قدم ، فله من قلمه السيال وأسلوبه الجميل وعرضه الشائق ، وفكره الناضج ، ما يجعله أقدر من غيره على السبق والتبريز في هذا المضمار ! ! .

* * *

كما أكرر فكري لمقتطف الغراء ، ولمحررها الكريم ، ولأسرتها النبيلة ، فقد يسروا لأحد أبناء الأزهر أن يقول في معهده كلمة الانصاف في زمن قلّ فيه المنصفون ! ! .

أحمد الشرباصي

المدرس بالازهر الشريف

نابليون

تأليف اميل لودفيج . ترجمة الاستاذ محمد ابراهيم الدسوقي : الجزء الاول ٣٥٢ صفحة من القطع المتوسط : القاهرة ١٩٤٦

أول ما يمتاز به أسلوب اميل لودفيج في التراجم انه أسلوب حديث خالف به ذلك المؤلف النابه أساليب كتّاب التراجم منذ أن بدأ صموئيل جونسون يكتب تراجم العظماء في انجلترا في القرن الثامن عشر . قيل ، وقيل بحق ، ان جونسون أعظم من ترجم عن حياة العظماء من كتّاب العصر الحديث . وتراجمه في الشعراء من عيون الأدب العالمي . أما الفارق بينه وبين لودفيج وهو أعظم كتّاب التراجم اطلاقاً في عصرنا الحديث ان جونسون يستمد أسلوبه من العقلية الانجليزية ، وهي عقلية واقعية . أما لودفيج فيستمد أسلوبه من العقلية الالمانية ، وهي عقلية مثالية خيالية .

الابتداءات التي يبدأ بها لودفيج كتبه نامة عن ذلك . فاذا نظرت في كتابه عن جوته وكتابه عن المسيح « ابن الانسان » او كتابه عن نابليون أنست فيه أثر الخيالية البعيدة المتدة الآفاق البعيدة الأغوار . يبدأ كتابه عن نابوليون بفتاة مترملة ترضع طفلها وفي أذنيها وقر أصوات كأنها هزيم الرعد : أتلك أصوات المدافع لا تزال تتكلم بألسن النيران حتى بعد أن غابت الشمس ، أم تلك هي العاصفة ، لسان الابد يتكلم ؟

أما ذلك الخيال الرائع فهو طريق لودفيج الى تصوير الحقائق . فليست أصوات المدافع بعد مغيب الشمس ولا العاصفة بأشياء متخيلة ، وانما هي وقائع من صميم السيرة التي يكتبها فهي إذن ليست خيالاً صرفاً وانما هي أداته الى طبع صورة تامة في ذهن قارئه . ذلك هو السر في عبقرية لودفيج .

* * *

كتبت عن لودفيج في العربية بعض أقوال ، ولخصت كتابه «ابن الانسان» في «العصور»، ولكن لم ينقل من كتبه شيء الى العربية بمثل العناية التي بذلها الاستاذ مترجم هذا الكتاب. فالعناية بالتأليف وبالكتاب ظاهرة جلية في جميع صفحاته . وهي أظهر ما يكون في أسلوب

الأداء وفي العناية بتفهم العبارات . فان الآفاق التي يسبح فيها لودنيج بعض الاحيان ، ترده عاجزاً بعض الشيء عن التعبير عما يرى فيها بلغة سهلة ، فيكتنفه الغموض . فاذا نقلت عباراته تلك كما خطها قلمه الى لغة أخرى خرجت شوهاء . أما عناية الاستاذ الدسوقي بأن يجلو ما صادفه في الكتاب من أمثال هذه العبارات ، فأمرٌ ينبغي أن يقابل بالشكر من كل عربي يُعنى بأن تكون الأمانة أول شروط النقل . فان المترجم الذي يقصر الترجمة على نقل الألفاظ دون المعاني ، أبعد ما يكون عن أمانة النقل وعن الفهم معاً .

* * *

كذلك قد مضى أكثرنا يعتقدون أن الترجمات التي ينقلها المترجمون الأوربيون عن غيرهم من الامم ، هي من الكمال والضبط بحيث لا يتطرق اليها الخطأ أو سوء الفهم أو الاهمال . غير ان المؤلف قد خالف هذه القاعدة فراجع الأصل على بعض الترجمات فوضح له أن بعضها أهمل نقل عبارات برمتها وبعضها أساء الفهم . وعندي ان ما قام به الاستاذ الفاضل مترجم هذا الكتاب من العناية بهذه المقابلات أمرٌ يستحق عليه كل مديح وثناء . وأول شيء نستخلصه من عنائه هذا انه ترجم الكتاب بروح اكاديمية بعيدة عما يزين الكثير من المترجمين حب العجلة واكتساب شهرة التأليف على حساب العلم والأدب .

* * *

جملة القول ان هذا الكتاب فريد في بابه ، نسيج وحده في الترجمة ، وصورة كاملة لما ينبغي أن تكون عليه الترجمة والمترجمون . ا . م

المرأة في ظل الديموقراطية

(تابع المنشور على الصفحة ١١٢)

ونقل الينا ان « كاترينا صمورو » قد أنشدت أبياتاً من الشعر نظمتها باللاتينية ترحيباً بالكردينال « ريارو » عند ما نزل بلاط أبيها ، وهي في العاشرة ، وعن « إيزابلا جونزاجا » انها كانت تغني أشعار « ڤرجيل » ، موقعةً بأناملها على القيثارة . وعن « إيزابلا دامصاله » انها كانت تقرأ ڤرجيل وكيكرون وهي ما تزال يافعة ، وانها والت درس الآداب ،

حتى بعد أن أصبحت مركزة « مانشو » . ولا شك في أن ذلك العصر ، عصر النهضة ، قد طبع بطابع الأدب العالي ، حتى لقد اعتقد أهل الطبقات العليا فيه ، أن تعلم الآداب القديمة من حاجات الحياة الأولى ، سواء للرجل أم للمرأة ، وأنه يزيد المرأة جمالاً وفتنة . فلم يكن هنالك من فارق بين تربية الفتى وتربية الفتاة .

نقتصر على هذه الصورة التي نقلناها عن عصر النهضة في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي ، لنقضي بأن تعليم المرأة قد انحدر وفسد ، والرأي فيها اضمحلّ وأسفّ ، من بعد ذلك . وشاهدنا على ذلك « روسو » قبيل الثورة الفرنسية.

ولكننا اليوم عند رأي « كامتيلدي » الذي قال في المرأة الكاملة :

« إن كل الايحاء انما يأتي من طرفها ؟ وانه من خصائص المرأة المثقفة أن تلهب في الرجل نار الشجاعة ، وتبعث في نفسه الأمل في حومة الوغى ، والنهى في قاعة المشورة ، والإلهام في عالم الفن ، والغرب في رحاب المعرفة ، والسموّ في ميدان الفضيلة ، والتقوى في مقاوز الدين » .

لقد قام في أثناء الثورة الفرنسية بعض الذين حاولوا أن ينادوا بحقوق المرأة السياسية. ومنهم رجال آمنوا بأن انكار ذلك الحق على المرأة ، فيه منافاة للعدل وانتهاك للفكرة الأساسية في الحرية ، وأنها ملكٌ مشاع لابناء آدم وحواء ، وانها حقٌ أبديٌ أزليٌ لا يُسلب ولا يُلغى ، بل انه حقٌ ملازمٌ للحياة الانسانية نفسها ، وان الاعتداء عليه ، مساوٍ تماماً للاعتداء على الحياة.

ولكن بالرغم من كل هذا كان نصيب كل حركة فكرية اتجهت هذا الاتجاه ، القمع السريع والكبت العاجل بشدة وعنف . ومثال ذلك : أن حكومة الثورة قد حلت جميع الهيئات التي أقامها النساء . فكل النوادي والجمعيات والهيئات السياسية التي أسسها النساء في فرنسا قد حلّت وحظر بقاؤها ، وحرم النساء شهود اجتماع الهيئة النيابية ، حتى لقد هددهنّ « شومت » أحد رجال الثورة ، بأن تدخلهنّ في السياسة ، تجاوزٌ لحقوق جنسهنّ ، واعتداء على الشرع الطبيعي . هنا نستطيع أن نقارن بين حال المرأة ومركزها الاجتماعي في طبقات المجتمع العليا في عصر النهضة الأوربية ، وحالها في عصر الثورة الفرنسية ، لنحكم أيهما كان عصر النور والعرفان .

اسماعيل مظهر

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التاسع بعد المائة

١٠٥ المرأة في ظل الديموقراطية : اسماعيل مظهر

١١٣ نور الدين الشهيد : ناجي الطنطاوي

١٢٤ كيف تحفظ صحتك : الصيف : فهمي عطا الله

١٢٥ قبو الفلوس آمن : نظر الدين العبيدي

١٣٠ ١ — حقيقة الضريبات : فؤاد جبمان

١٣٥ ٢ — عود على بدء : الضريبات : جريس الشرايحة

١٤٠ النسيم (قصيدة) : شاعر البراوي

١٤١ نظرية النمو الذاتي وبهضة احياء العلوم في غربي اوربا . ع . ش

١٤٥ فشل دعاة الانقلاب : محمود المنجوري

١٥٠ د . د . ت الطالوك الحديث للحشرات : عوض جندي

١٥٥ مكتبة المقتطف : الملك : وديع فلسطين . الأزهر بين الماضي والحاضر : احمد الشرباصي . نابليون : إ . م

من مقتطف اغسطس

سنة ١٩٤٦

١ — ٤٠ الدعاية قديماً وحديثاً : سليم تاوضروس الاسيوطي

لواحق المقتطف الشهرية
اغسطس ١٩٤٦

بقلم
سليم تاوضروس الاسيوطي

جميع حقوق الطبع محفوظة للمقتطف

الثمن ١٠ قروش صاغ

مطبعة المقتطف والمقطم
١٩٤٦

فهرست الكتاب

صفحة

١ — الدعاية قديماً وحديثاً

٢٠ — الدعاية أسباب نجاحها

٢١ — سر نسيان الجمهور

٢٤ — الرئيس ومصارع الثيران

٢٧ — الدعامة الثالثة من أسس الدعاية

٣٠ — سحر الاسلوب

٣٢ — نحو الهدف

٣٤ — استغلال هيأة الملك

٣٦ — خطاب لويد جورج في يوم السبت من كل اسبوع

٣٩ — المراجع

الدعاية
قديماً وحديثاً

الدعاية في مختلف أطوارها

توحي كلمة « دعاية » بكثير من المعاني في زمن الاصلاح الديني والاجتماعي في أوروبا أصدعت الوحدة الروحية والوحدة الكهنوتية وفقدت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في العصور الوسطى سيطرتها على دول الشمال . وفي أثناء معركة الفناء والدمار التي تلت هذا بين قوات البروتستانتية ومعارضي الاصلاح وجدت الكنيسة نفسها إزاء إشكال الابقاء على سيطرتها بل وزيادة تلك السيطرة على الدول غير الكاثوليكية . وأرسل جورج الثامن بعثاً من الكرادلة في عام ١٥٧٢ : ١٥٨٥ أناط به نشر الكثلكة وتنظيم الشئون الدينية في أرض الهراطقة وبين الخارجين على الكنيسة أو الشعوب الوثنية ، وسرعان ما أصبح رئيس البعث الملقب بالبابا الأحمر رئيساً للدعاية وبعد مضي جيل من الزمان نشبت حرب « الثلاثين سنة » فجعل جورج التاسع في سنة ١٦٢٢ البعث دائماً وصار جمعية مقدسة للدعاية الرسمية وأسند اليها تنظيم البعوث الأجنبية ، وقوّاها بدخل تدرّه عليها ضرائب فرضت على كل من نصب كردينالاً . وبعد وقت قصير انتهى الأمر بأن تبلورت هذه المهمة وتركزت في كلية الدعاية التي تأسست لتعليم شباب المقاومة الذين سيلقى على كاهلهم أمثال هذه البعثات .

هذا المعهد الذي كان الأول من نوعه جماعة أنيط بها التقدم في نشر مجموعة من المعتقدات الدينية ، هذه الجماعة لم تكن ابتداعاً في ذاتها ولكنها كانت حدثاً جديراً بالملاحظة والنظر بسبب ما أحاط بها من الظروف التي رأت فيها النور وسرعان ما أصبحت كلمة « دعاية » تطبق على كل تنظيم يقصد به نشر عقيدة من المعتقدات وما لبثت أن طغت على المقيدة نفسها التي

كانت تذاع بين الناس . وأخيراً طبقت على الوسيلة التي كانت تتبع في هذه الأغراض وكانت ترتبط منذ البدء بالدين أعني بالعقائد التي تقوم على أساس ديني أكثر من قيامها على الشعور الانساني، بل وأكثر من ذلك صورة واحدة من الأديان الكاثوليكية الرومانية وكانت معظم دول أوروبا تعارض بشدة الطرق التي اتخذتها الكنيسة في هداية الناس أو في الاحتفاظ بهم في حظيرتها ، وبذلك صار لكلمة دعاية معانٍ أخرى رديئة بين دول أوربه الشمالية . وهي الدول التي انشقت على روما بينما في الدول اللاتينية التي ظلت على تعصبها وولائها لروما لم يكن لكلمة دعاية بينها هذه المعاني البغيضة ، كما انه ليس لها هذه المعاني حتى وقتنا هذا . وكان مما يدعو الى البغض والكراهة أن تلقب جماعة أو فرداً بالداعية في بريطانيا العظمى ولم يكن لهذا الوصف من الأثر في ايطاليا مثل ما له في بلاد الانجليز .

ومن القرن التاسع عشر الى القرن العشرين نسمع قليلاً عن الدعاية بالنسبة لما كنا نسمعه عنها ،وكان لهذا الاصطلاح استعمال محدود، ومع انه لم يكن محبباً الى النفوس فقد كان غير مألوف وغير معروف وفي أثناء الثورة البيورتانية وقعت الدعاية بالرسائل والخطابات الدينية بجانب الحركات الحربية . وكان جيش كرمويل يعمل على نشر العقائد الدينية والسياسية كما عمل على النصر في ميدان الحرب والقتال . وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت حرب الاستقلال الأمريكية وحروب الثورة الفرنسية الكبرى وحروب نابليون ، حروب أفكار وآراء ومعتقدات ، وهدفها كهدف تلك الحروب التي ترمي إلى فتح البلدان تماماً . وكان يراد بها نجاح الثورة أو عرقلتها ،ولذا فقد وزع رجال حزب الجيرونديين نشرات بين قوات العدو يعدونهم فيها بالمنح والهبات إذا هم تركوا صفوفهم وفرُّوا من الجندية . وكتب تين في كتابه «تاريخ الجندية» إن جماعات من الجنود الفرنسيين ظهروا مجردين من أسلحتهم في طلائع جيش العدو وأعلنوا ولاءهم .. وخلفوا وراءهم حزماً كبيرة من نشرات تضمنت الفوائد التي تعود على الفرنسيين والبروسيين سواء بسواء من انتهاء مصالحهما، ووقعوا ألحان الحرية والمساواة بلغة يفهمها الجند ويستسيغونها . وفي هذه الفترة من الزمان وقد ألهب الفرنسيون روح الحماس الثوري بذلوا الجلفاء في فن الدعاية الذي كانوا ينظرون إليه نظرهم إلى كل مستحدث عصري غير مشرف .

ولم تتحمل حروب الثورات الفترة التي تبدأ بنهاية الحروب النابليونية والتي انتهت بثوران بركان الحرب الأوربية الكبرى الأولى في عام ١٩١٤. ومن ثمّ لم تكن هناك فرصة لازدهار الدعاية القوميّة على مدى واسع، وصارت الدعاية من الناحية التاريخية مرتبطة بفترات الهياج والشدائد التي كانت فيها المعارضة العامة للعقائد مصحوبة باستعمال القوة. وبدا من المتعذر إمكان تطبيقها على الطرائق العادية للمعتقدات السائدة التي تستعمل في زمن استقرار المجتمع وأمنه. لأن روح الدعاية التأثير على الأفراد كي يعملوا أعمالاً معينة ما كانوا ليفعلوها أو ليفكروا أفكاراً خاصة ما كانوا ليفكروا فيها لو أنهم تركوا وشأنهم. وفي هذا المقام يختلف الداعية عن العالم أو الناس فهو لا يحاول أن يقنع نفسه بالبحث عن الحقائق أو اذاعتها وتركها تتكلم عن نفسها غير مهتم كثيراً أو قليلاً بقبول دعوته أو رفضها. ولكن على النقيض من ذلك فإن نجاح الداعية أو فشله يتوقف على هذا القبول أو رفضه، وليس صدق موضوع الدعاية محور الأهمية فيها، ولكن المهم هو جمهرة الناس الذين يراد التأثير عليهم وحملهم على التصديق والعمل كما يُوحى إليهم. ويُحكم على الدعاية بالوسيلة التي تتبع فيها ومدى ما تصل إليه من نجاح واستمرار هذا النجاح، وليس بما يلازمها من عظمة ما يدعى إليه وخطره وأثره. وفي الحياة المثالية لا مدعاة ولا ضرورة للدعاية لأن الفرد فيها قادر على إدراك ما هو حق وما هو صالح له. وفي المجتمع العصري وبالأخص في الحالات المرضية في المجتمع. وفي اثناء الحروب والثورات، وزمن المصائب المادية، والمحن الاقتصادية، تبدو الدعاية ضرورة لازمة لحمل الناس على العمل قبل التفكير، أو على الأصح قبل أن يجدوا متسعاً من الوقت ليتمموا عملية التفكير. وفي المجتمع الكامل يكون الناس متساوين مستقلين اعتمادهم على أنفسهم. ولكن في المجتمعات التي نألفها فالحاجة ملحة إلى ضوابط وحكومات من درجات متباينة تتدرّج من تنظيم أو إدارة ضرورية في ظل الحكم الديموقراطي إلى المراسيم التي تصدر في دولة أوتوقراطية، ولكنها تختلف وسيلة وقوة وتبلغ الحاجة إلى الدعاية أدناها بين أصحاب مذهب الفردية الذين تدرّبوا على أن يفكروا لأنفسهم وقد سبقوا غيرهم عقليًّا. ولذا يمكن القول وفي اطمئنان الواثق أنه كلما زاد استعمال الدعاية في قطر كلما زاد بعده عن الدولة المثالية.

وفي الواقع ، حتى في الدولة التي بلغت شأواً عظيماً من المدنية والتقدم لم يسلح المواطن الفرد فيها التسليح الكافي ليكون سديد الرأي في إصداره من حكم على الأشياء وليتصرف تصرفاً قائماً على العقل والتجربة في سداد الشئون العامة . ولكن جُلّ ما يعلم من معارف تأتي إليه عن طريق غيره ويقول « فايغر » في كتابه « نظرية الحكم ومزاولته » إن هناك صلات الأسرة بالفرد وما يتصل بها من تجارب فهو يتعلم شيئاً بل أشياء كثيرة عن الخلق الانساني في شتى مظاهره المتباينة ، فعليه أن يأخذ عن كل شيء بطرف ، المهن الشريفة والأديان والمساجد والمعابد ويكون له إلمام بالجيش والبحرية والطيران والأحاديث التي تتداولها الألسنة في الأسرة بل وفي المجتمع كله أو الوطن بأجمعه . أما في الأقطار التي تجند الجنود وتحشد الجيوش فتجيء المعلومات عنها بالعمل والاشتراك فيها ، اشتراكاً فعلياً . ومعظم الناس يتصلون برجال الشرطة في وقت من الأوقات حتى ولو كان هذا الاتصال ضئيلاً واهياً لأن عمدة البلدة أو عضو مجلسها المحلي أو عضو البرلمان يصرح للناس أنهم محكومون أو أنهم ملك للقوة الحاكمة ، ويدعونهم لتقسم علانية ليؤدوا يمين الطاعة والولاء ، أو أن تكون السلطات الرسمية مصدر إلهامهم ولهوهم البريء . فالبريد معروف منذ الطفولة وإدارة الضرائب ومكتب تقدير الأثمان نصير حقائق ثابتة . وفي القضاء يساعد المحلفون على تحقيق العدالة ، ويجد آلاف من الشعب لهم أمكنة في الهيئات الحكومية المحلية وفي داخل البلاد . فالحديث لا ينتهي عن الأثمان والأجور سواء في المنزل أو في المصنع ، كما أن هناك المدرسة القديمة لازالت على طريقتها الرتيبة العتيقة رغم على العمل وتبث الطموح في النفوس ، كما أنها تهيء الفرص لمن يترقبونها ، كما أن عملية النقل مهمة يومية لا تنقطع ، والمسارح ودور السينما والألعاب الرياضية تعطي تجارب لا يتاح للمواطن أن يلعب دوراً إيجابياً دونها ، والا بقي جامداً . وهذه المعارف والمعلومات التي تتسلح بها غالبية الشعب عدة قد تمكنها من أن تكسب قوتها ، وقد يقويها ويدعمها المعارف المتداولة ، والآراء المعروفة ، فيتمكنون لمن أن يختاروا نوع الحكومة التي تسيرهم ، ويصدروا قرارات هامة بسياسة شعبية ، ويصرفوا إرادتهم بحكمة ، ويفيدوا أكبر فائدة من العلم والثقافة ، فالدعاية إذاً موجودة لأن عقول الأفراد إما متأرجحة أو مدربة تدريباً سيئاً ، فهي تقودك الى العمل في أقصر الطرق وأخصرها في بعض الأحايين

تكون أوثق من عمل أثنين من رجال من الفكرة، لأن الضرورة اللازمة في وقت الأزمات تقضي بأن العمل أولاً، ثم التفكير ثانياً. وقد درّب الأفراد على التفكير فيما يفعلون مقدماً وقدروا هنوا على بطئهم في الاستجابة لنداء ما تتطلبه الأزمات. فالدعاية على هذا الأساس أداة قوة تتطوّر الى مسئولية تلقى على كاهل الحكومات، أو تبعة تناط بها المجتمعات القومية، وتعطيها الحق في استعمالها إذا تراءى لها أن المجتمع يهدده الخطر وروح الدعاية التأثير على الأفراد دون النظر الى ملكاتهم المفكرة، فهي على هذا الاعتبار عملية غير منطقية ومع هذا فهي لا تطرح جانباً أو تغضي عن مظاهر التفكير والرأي. فالانسان حيوان مفكر في التمدن والحياة العادية وغير المنتجية. فقد تعوّد على تدريب قواه المفكرة، فلكي نحمله على الاقلاع عن هذه العادة تفترض الدعاية عادةً بعض مظاهر التفكير. ومن الطبيعي أنه يمكن حمل الافراد على الخضوع قسراً للسلطان، وتنفيذ ما به يؤمرون. ولكن الدعاية تلجأ الى وسائل الاغراء أكثر مما تلجأ الى القوة والقسر لانه يمكنها أن تصل الى هدفها بأحسن الطرق وأسهلها إذا ألقت في روع الفرد أنه يقبل الاغراء طلباً نداء قواه المفكرة العادية. ولذا فهو يبقى على احترام ذاته بصفته حيواناً عاقلاً وانه يستطيع العمل في وقت أقصر اذا كانت قواه المفكرة لا تساعدها قوة أخرى ويترك وشأنه. وحينئذٍ فكلما تيسر المجال تفترض الدعاية إخفاء التعقل بستار الفضائل التي هي من ميزات العقل مثل الصدق والنصفة والعدالة والمنطق، والداعية الناجح هو أمهر من يأخذ على عاتقه صفة من يبحث عن الحق ويدفق في البحث عنه أو صفة العالم أو المربي.

ومن الاسباب القوية المهمة التي تصبغ الدعاية بصبغة الوقاية المعارضة التي تقوم في وجه الدعاية نفسها وهذه المقاومة تبدو من الفرد بالغريزة عندما يحس نفسه خاضعاً لتأثيرها في أوضح صورها، لأن الدراسة النفسية الرديئة هي التي تجعل الفرد يرى في نفسه فريسة للاغراء بينما في الامكان حمله على التفكير، لأن الاغراء صادر منه ولقع عليه، وقد أحاطت بالمجتمع الحديث ظروف جعلته أميل الى خلق مناسبات سيئة في كثير من الاحيان أو ايجاد كثير من الاشخاص الذين ملأت رؤوسهم فكرة نقصهم أو عجزهم اذا هم واجهوا ظروفاً تختلف والتي يعيشون فيها أو اعترضتهم اشكالات لم تكن تدور بخلدهم. فاذا أخفقت الداعية

مرّة وأشعر الذين يشرفون بينهم دعايته أنه ينظر اليهم نظرة وضيعة تبقض عقولهم وأعصابهم جاهداً لتحول دون دعايته والانتشار، وتراقبه وتحرس الطرق التي يسلكها بينما الأمر على النقيض فيكون التردد الذي به مركب النقص من أكثر الدعاة حماسة وحمية ويجد في إغراء الآخرين تعويضاً للنقص الذي في شخصيته وتكميلاً لعجزها لأن الدعاية لا تستمد قوتها من غريزة القطيع في الانسان ولكن تستمدها من فرديته وشأن النبي الذي يدوي صوته صارخاً في البرية، والذي بلا كرامة في وطنه، شأن الداعية من زعماء الشعب الذين يحملهم على الأكتاف وهم يثيرونه ويحركونه .

إن الغريزة التي تدفع الفرد الى العمل ضد الدعاية السافرة تجعله متبلد الشعور جامد الحس، أو تجعله يقف موقفاً عدائياً إزاء التعليم والتربية ، لأن الحد الفاصل بين الدعاية من جهة والتربية والتعليم من جهة أخرى، باهت ضعيف صعب التحديد، لأن بعض ذوي النظر يرى أن تعليم الأطفال وعلى الأقل في صوره التقليدية ليس أكثر من إخضاعهم لعملية دعاية مستمرة منظمة يشرف عليها راشدون . وفي هذه الحالة يكون الداعية المعلم، ونائب المجتمع، الذي رسم عن تجربة وتقليد مجموعة من المعتقدات والنظم ، ووضع طائفة من المعارف والافكار تفرض على كل فرد من أفراد المجتمع . والطفل لا يكوّن أفكاره الخاصة به ، ولا يحصل معارفه بنفسه، لأن المدرس هو الذي يزوّده بالقدرة على التفكير ، والشعور عليه ويزوّده بمادة التفكر التي سبق إعدادها فيخلع عن نفسه العقائد التي تبناها في طفولته أو بغيرها بينما يكون الأحرى به أن يهضمها ويدخلها في بناء تكوينه ليتسنى له أن يجعل منها أساساً يقيم عليه تفكيره في طور نضجه . وعلى أية حال فنحن نفرق عملياً بين التربية والتعليم من ناحية ، والدعاية من ناحية أخرى . فإن سوء سمعة الدعاية تنشأ عنها التربية والتعليم لأن عقل الطفل معتبر في جميع أحواله غير قادر على التقدم دون إرشاد . فإذا ترك وشأنه وقع فريسة لأي نوع من أنواع الدعاية مهما كانت خسيسة دنيئة المبادئ، لا يرجى منها خير، في حين أن المعلم وهو عضو معترف به في الهيئة الاجتماعية المعترف بها يعمل عادة لصالح المجتمع على الاجمال ، ودعايته تمثل خليطاً من حكمة المجتمع على مرّ الزمن ، ذلك المجتمع الذي يستخدمه . ويجب حينئذٍ أن تستغل قوته

ويلقى عليه مسئولية كما يلقيها على رجال الدين ورغم أن كلاً من المعلم ورجل الدين لا يدخل ضمن الدعاة، فالشخص الرشيد الناضج العقل ينظر إليهما نظرة لا تخلو من شك وريبة لأن في كل منهما يعملان دعاية كاملة ، فالحصيف يخشى أن المدرس وقد اعتاد تلقين الأطفال يحاول أيضاً وقد يكون عن غير قصد ووعي من أن يعلمهم ويربيهم كما يرغب ، كما أن رجل الدين وقد اعتاد التبشير والوعظ في الشعب يحاول أن يحوّل الطفل وجهة دينية أخرى . ويخلق هذا الخوف وذلك الحذر مقاومة لا يفطن إليها الفرد ضد المعلم أو رجل الدين قد تأخذ في النهاية صور الإهمال أو التراخي أو الترفع أو المخاصمة السافرة . ولذا فهذه الطبقات تكون عادة هدفاً لريبة جائرة أو حفيظة غير عادلة لا مبرّر لها في المجتمع الذي إليه ينتمون .

وتبعاً لهذه الصعوبة التي تقوم دون القدرة على التمييز بين الدعاية والتربية ، وتبعاً لأن الحقيقة الواقعة أن الدعاية تصبح أكثر صلاحية في المجتمع كلما انحطت تقاليده ، والعرف السائد فيه . وقد بُذلت محاولات لتوسيع معنى الكلمة ولتحديدها بمصطلحات لا تقوم على أساس التعمد ولكن تنهض على التأثير فكلمة دعاية ، إذاً ، اصطلاح يشمل كل الحركات التي تؤتى عن عمدٍ وقصد لإغراء عدد من أناس آخرين ليعملوا أو ليفكروا حسبما يريد الداعية . ولكن هل تشمل الدعاية الحركات التي ليس من الضروري تلوينها بلون التعمد والاصرار والتي تعد في الواقع لتأتي بنفس الثمار ؟ الإجابة على هذا السؤال معقدة والتعقيد فيها صادر عن قياس كلمة « عمد » ووزنها لأن أبسط صور الدعاية أوضحها تعمداً فهي عارية مكشوفة . ولكن هناك حالات دقيقة تكون فيها الدعاية مقنعة الغرض إذا لم يكن مختفياً كل الاختفاء ، ويكون هذا بصفة خاصة في أحوال الدعاية التي تعمل للنظم المرعية والعادات القائمة لأن في مثل هذه الأحوال يكون مجرد توارث العادات والاستمرار في هذا التوارث بتقوية التقاليد والإبقاء عليها بحالتها الراهنة لأنه يكفي وقاية الفرد من تسمم أفكاره، وصيانة حركاته، لكي نثق أنه سيقنع راضياً في عقر داره، قانعاً بما اعتنق من عقائد وما يأتيه من تصرفات، وهذا غرض من أغراض الرقابة الأساسية، وتكون في هذا المقام تريثاً ضد الدعاية وشفاء منها أو هي صورة من صور الحركات المضادة لها .

وتكون الدعاية مقنعة محجبة إذا كانت الدوافع خلفها ليست واضحة. فمثلاً هل كانت الدعاية

التي عملت في « إلدرشوت » للتجنيد والتسليح حقاً أم كان القصد منها مجرد إجتماعات ترفيه وتسلية لأغراض البر والاحسان ، أو كلاهما معاً ؟ وهنا يعرض لنا السؤال الآتي : هل صور نجوم هوليوود السينمائية في الأفلام تعتبر دعاية لاستعمال أدوات التجميل ؟ لقد قيل إن جميع التصرفات البشرية ترمي إلى أغراض وأهداف. وعلى هذا فليست هناك أعمال توصف بالنزاهة عن قصد أو لا تقصد إلى غاية . وعلى ذلك فيجب أن نستريب شرعاً في الدعاية في كل أوجه النشاط الاجتماعي وتبعاً لهذا التسلسل المنطقي : « فكل حركة تؤدي في وجود نظارة أو أي حركة تقدم للجماهير عن طريق الصحف أو المذياع وتوضع موضع الالتفات من الجماهير الذين قد يتجمعون فيما بعد أحزاباً وشيعاً هي في الواقع وتمض الأمر دعاية وتحت ضوء هذا التعريف الذي جاء عن طريق التصرفات اذا وجدنا أن أية حركة تعمل لحمل الناس على التعبير عن آراء خاصة أو أن يفعلوا أموراً معينة لم يعتادوا الافصاح عنها ، أو اتيانها، فلا بد وأن تكون تلك الحركة قد أديت لخلق هذه الآراء ، أو ايجاد ذلك التصرف . وعليه فهي دعاية فتلاً الأثر الذي يتركه حفل شعبي مثل مهرجان التتويج يقصد به إظهار الولاء الشعبي للعرش مضخماً ولذا فقد قيل ان التتويج دعاية الملكية . والاعتراض الذي يقوم في وجه هذا التعريف الفضفاض للدعاية أنه يبدو كأنه يردها عديمة المعنى. فتلاً مباريات كرة القدم يشاهدها آلاف من النظارة الذين يدفعون أجوراً لمشاهدتها وهي مصدر نفع جزيل لمنظمي هذه المباريات . ولكن أثراً من آثار إقامة مباريات الكرة تحويل أنظار الجماهير وعقولهم بعيداً عن ميدان السياسة ردحاً من الزمن ويخفف حدة ما يحملون من موجدة ضد النظام القائم في المجتمع . واذاً على هذا الفرض القائم على التصرف الخلقي تكون مباريات الكرة صورة من صور الدعاية التي تعملها الرأسمالية لتخدير الرأي العام . وقد كان هذا موضع نقاش حاد في استعماله إذ منه نخلو خطوة أخرى نصل منها الى أن الدعاية توجد في كل شيء وهذا الفرض يساعد الماركسيين في تفسيرهم للمجتمع بدعوى أنه طبقات دائمة الحرب بعضها مع بعض في حياتها المستمرة لأن الدعاية في سميها أداة حرب لأنها تزدهر وتينع وتؤتي أكلها حينما يكون هناك صراع آراء وتكون الحاجة ملحة لوضع نهاية لهذا الصراع. فاذا اتخذ شخص « حرب الطبقات » أساساً لكل مجتمع قائم فدت الدعاية موجودة في كل مكان وفي مثل

هذه الأحوال فقط يصبح من المستحيل تفاديها ويعتبر النفع الذاتي وعدم التحيز والخلو من الغرض صوراً من صور النفاق المتعددة وليست مثلاً عالياً من المعايير الوصول اليها خدمة أغراض معينة بواسطة قوم يعيشهم وإن وجهات النظر الشديدة باتهكم أو المتعارضة من المجتمع تنتهي بسدام حائر بين الفاشية وبتعبير آخر فهي تكشف عن نفسها في صورة معارضة لكل تطرف لا يتفق إلا في استبعاد العناصر المتزنة . وهذه الفكرة لم تلق ترحيباً في بريطانيا الديموقراطية ، والانجليز ليسوا مستعدين أن يروا الدعاية متغلغلة في جميع مرافق حياتهم لأنهم ما زالوا يفكرون في الفرد وملكات عقله وقدرته على الحكم على الأشياء ، وأن من حقه التفكير لنفسه لأن عدم المحاباة والفردية تتمشيان معاً يداً في يد .

يمكننا الآن أن نفهم لماذا كان لكلمة دعاية معان مختلفة في البلاد المختلفة فهي صورة من صور النشاط الاجتماعي ، لأن أي محاولة تبذل من جانب شخص لإغراء آخر على شراء سيارة مثلا ليس دعاية بالمعنى المتعارف لأن الدعاية توجه إلى جماعة من الناس أو إلى الأمم وفي البلاد التي قويت فيها غريزة القطيع بينما روح الفردية لا تجد التشجيع الكافي ، تكون الدعاية الوسيلة الطبيعية لإثارة الرأي العام أو تكوينه ولكن في البلاد التي تعزز فيها روح الفردية يعترف بالدعاية على أنها شر لا بد منه ، فتجيء في الرتبة الثانية الحسنة من مقومات الرأي العام وتكون الحيدة وعدم الميل ذات اليمين أو ذات اليسار فضيلة عقلية رفيعة وتكون التربية طريقة نزيهة لتزويد الطلاب بالمعلومات ، حتى إن الدعاة يجدون تصرفاً حكيماً عاقلاً أن يحاولوا الوصول إلى العدل أو محاكاة وسائل التعليم ما وسعتهم الحيلة وما واتتهم القدرة فلا داعي لبث دعاية في بلاد ذات تقاليد تصبغها الصبغة الفردية القوية ويشيع فيها تعليم عام من الطراز الأول هذا التعليم من شأنه أن يكون مواطنين قادرين على التفكير والعمل وحسن التصرف حسبما توجبه ضرورته الحقيقية والدافع في كل شأن من الشئون التي تعرض لهم .

سبق أن قلنا إن الدعاية أداة حرب تزدهر وتينع حيث يوجد صراع بين الآراء وصدام بين المصالح ووجوب تعادي هذا الصدام والوصول إلى حل مرض .

وتوجد ثلاثة أنواع من الحروب في العصر الحديث .

(١) صراع المبادئ — التنافس بين الكنائس — المذاهب — مدارس الفكر والمعتقدات

(٢) الصراع الاقتصادي — حرب الطبقات — والتنافس بين الجماعات الاقتصادية أو بين أفراد كل جماعة على حدة — الاعلان

(٣) الصراع المادي — الحرب بين الامم أو الحروب الاهلية .

في غضون أحد هذه الحروب تنمو الدعاية وتترعرع لأنها جميعاً تترك المنافسات العقلية جانباً ، تتركها كوسيلة للوصول إلى قرارات حاسمة . ففي أثناء الصراع بين المبادئ يوجد سدام بين رجال المعسكرات المتضاربة المعتقدات ، وبدلاً من أن يحكم العقل أو يلجأ إلى الوصول إلى الحقيقة بعد البحث والاستقصاء ، تهب الملايين وتأخذ أقصر السبل نحو إغراء المعسكر المعارض. فإذا كانت مدارس الفكر المختلفة متشابهة الحال متكافئة القوى كانت الدعاية التي إليها يلجئون دفاعية مصطبغة بالصبغة العقلية . ومع أن في الحقيقة ليس هناك متسع من الوقت ولا ميل للتمشي وإحكام العقل والمنطق ولكن غالباً ما تقوم الخصومات العقائدية بين مدارس فكر موجودة بالفعل من جانب ، ومدارس آراء مستحدثة أو ثورية من جانب آخر . وفي مثل هذه الحال تأخذ الدعاية المعارضة ألواناً مغايرة وصوراً مختلفة . فالمدارس الموطدة الأركان تلجأ الى السلطة العقلية والتقاليد في الدولة وتضع ثقتها في حكمة عالمة ذائعة استقرت وتركزت وتبلورت فرسخت واستقرت وارتبطت بالماضي وليس مهماً أن تكون هذه الحكمة جاءت إلينا عن طريق العقل أم لا . والداعية الذي يدعو الى السلطة القائمة يعتمد على القصور الذاتي العقلي الذي يحيط بمعظم الأفراد لأن المنطق وأعمال العقل ما زالت مهمة شاقة وعملية عسرة على الانسان في حاضره المتمدن ، فليس ثمت رجل يستطيع أن يقرع دائماً الحجة بالحجة أو يحيا حياة منتظمة انتظاماً قائماً على التفكير المنطقي ، لأن الغريزة والعواطف دائماً أبداً متداخلة كما أن العقل نفسه لا يستقر في وضع من الأوضاع إلا بعد زمن طويل ، وأن الفرد يتصرف بحكم العادة أو تحت ضغط تبعاً لمن يسيطرون على الموقف بعد أن أحرزوا قصب السبق في العمل ، أعني أن الفرد يتصرف بدافع من السلطان في الدولة ، أو بوحي من عقول أخرى صبغته في التفكير . هذا هو الحقل الذي يجب أن يفلحه داعية يدعو للسلطة العقلية القائمة ليبذر فيه بذوره . ولهذا السبب كانت الدعاية سلاح هؤلاء الناس الرئيسي فهي سلبية . ومن جهة أخرى

فانه لا يمكن لمداوس الافكار الحديثة أن تعتمد على قوة العقل الجامدة لأن ذوي العقول المفكرة المجددة ترى في الوقوف سقوطاً فيجب عليهم والحالة هذه أن يظهروا بمظهر من يخاطب العقل إلاّ الذين تمكنوا من أن يرقعوا على وتر حسّاس مشدود في العواطف الفطرية في طبيعة الانسان مثل الخوف أو الجوع وغالباً ما يحاول الداعون الثوريون اعادة بناء نظرية من النظريات أو مجموعة من المبادىء والأسس تقوم على المنطق في ظاهرها وهم يناقضون في هذا الداعين الذين يدعون النظم المقرّرة المستقرّة ويعتمدون على أدلة صلبة وبراهين صلدة من تجارب الماضي .

أما في النضال الاقتصادي فتتركز صور الدعاية الرئيسية حول تنافس المنتجين لترويج بيع سلعهم بين المستهلكين في مجتمع حرّ التصرف فيما يأخذ وفيما يدع . والدعاية هنا الاعلان، والذي نسميه تجاوزاً نشراً ، ووجدت الدعاية بالاعلان لقصور أحكامنا العقلية لأن الفرد في المجتمع الكبير ليس لديه من الوقت أو القوة ما يمكنه أن يعرف أي انتاج يختار لاستهلاكه من بين تلك التي ينتجها عدد كبير من المنتجين ، وتعرض في الأسواق وتكون أنسبها لحاجته .

* * *

هنا يتقدم المعلن ليوفر عليك الجهد ويسد هذا النقص فيضمن ألاّ تعدم سلعة نافعة الجمهور الذي هي خليقة به اعتماداً على جهل المستهلك ولكن منذ أن أصبحت الإعلانات مرسومة بسمة التضليل والمغالاة في الوصف حلت محلها كلمة « نشر » للدلالة على لون من الإعلان أنزه وأحسن وقد خلت من سوء العرض للجمهور. فالنشر صورة من صور الاعلان فهو دعاية تقوم بها جماعات لا غاية لها ولا جعل مطلقاً في شئون الاستغلال الاقتصادي فصيف على شاطىء البحر مثلاً يعلن عن نفسه في حملة بالنشر والإذاعة قوامها ثروة عامة تؤيدها الافلام والصور والصالح التجاري لمجتمع ما يتضمن في هذا المجتمع نفسه في الواقع ، وليس الصالح التجاري فقط لجزء من أجزائه دون سواه . والجماعات التي تؤدي خدمات اجتماعية أو التي تخدم أعمال البر والاحسان تروّج لنفسها بالنشر أيضاً متحلة الأسباب والمعاذير المقبولة والمعقولة لهذه أو تلك ويقف هذا اللون من الدعاية عادةً موقف الأمين على التربية والتعليم

والخان في أوسع معانيها وتعتمد على الحقائق أو على عاطفة الشفقة المتأصلة في النفوس . ولكن الاعلان التجاري يمكنه أن يحاكي « النشر » ما دام معظم المعلنين يلجئون في الظاهر إلى عقول المستهلكين أو مصالحهم الخاصة ويجدون أن الأنسب صبغ الموقف بلون مصطنع من حب الخدمة العامة أو الحياد .

وعندما تنشب المشاحنات المادية بين الأمم أو في داخلها تتخذ الدعاية ، حينئذٍ ، أعنف صورها ، وليس من السهل أن تتبين النظرة الأولى لماذا يحدث هذا . ولكن من الواضح الجلي أن الحرب تحكيم القوة فإذا نجحت صار الإغراء تافهاً وحينئذٍ فالدعاية في زمن الحرب محاولة مسخرة لتجديد الإغراء المنوه عنه على الاعتقاد بصدق ما يشاع ويذاع وإن في الأزمنة الأولى وفي مدى مئين من الأعوام التي تلتها لم تكن الدعاية لازمة معترف بها من ضرورات الحرب وقيام الدعاية بقيام الحروب مرتبط بالضعف المضطرد في استعمال الحرب نفسها وسيلة لحسم المنازعات الدولية . والحقيقة التي لا مراء فيها أنه في مدى مائة سنة من الزمان لم يكن هناك أي غرض سافر للحرب بالمعنى الذي نفهمه عن الفتوحات التي قامت بها قبائل المغول في العصور الوسطى والتي تضطرم نيرانها ويشتد أوارها في ميدان القتال وفي ميدان الفكر سواء بسواء وتبعاً لما عليه الحروب من تعقيد وتبعاً لنمو المدنية صار الناس أقل استعداداً مما كانوا عليه في سالف العهود من حيث الاتجاه إلى الحرب فهم في حاجة إلى إقناع عقلي لحملهم على الايمان بضرورتها وتحكيمها ، حتى إن الشعوب التي تدافع عن كيانها ضد اعتداء المعتدين تحمل لواء حرب أخلاقيـة كما يضرونها حرباً مادية . وانتهى الأمر بالحكومات الحديثة الى أن اعترفت بالأهميـة القصوى في ضرورة ربط الآراء بعضها بالبعض الآخر بين رعاياها كما تحاول التفريق بين رعايا الدول المعادية وشطر الآراء فيهـا . ولما كانت الحروب تتخذ الاختراعات كما تحتضن التنظيمات السياسية والاقتصـادية فهي ترعى الدعاية كما ترعى أي فن من الفنون ، لأن من الواضح أن دعاية الحرب أبعد منالاً وأصعب مأخـذاً من دعاية السلم . ومن المؤكد أنه أيسر للداعية أن يدعو الى التعاون والى الاتحاد والى التضامن إن بني وطنه في زمن الحرب ولكن من الوجهة الأخرى المعسكر المعـادي متحد متعاون متضامن يقظ بلغ به الشك غاية بعيدة ، فهو أقل قابلية واستعداداً للتأثر بالدعاية

الخارجية في هذه الظروف منه في ظروف الحياة العادية . فسفارة الداعية ومهارته بدور تجد تربتها الخصبة في أرض الوطن لغرس الآراء وتعهدها بالري والسقيا حتى تنمو وتترعرع وتقف على سوقها وتبلغ أشدها وتسيطر على الآراء والأفكار في الدول المحايدة وغيرها من بلاد العالم ، وتصفيه آراء العدو . والوصول الى الهدف الأول يجب أن تكون الدعاية في صورة أبسط ومادة أقوى وأقل اعتماداً على العقل وتكثر من التلاعب بكلمات التجامل وما جرى به العرف ولكنها على النقيض من ذلك لأجل تحقيق الغرض الثاني يجب أن تكون الدعاية دقيقة غير مباشرة الى أقصى حدّ مستطاع ، ظاهرة في منطقها ، مناسبة في وضعها وأن يبدو الدافع اليها اعتبارات خيرة كريمة .

غني عن البيان أن موضوع الدعاية ظهر لأول مرة في الموسوعة البريطانية في الطبعة الرابعة عشرة ١٩٢٩. أما الطبعة الثالثة عشرة التي ظهرت قبل الحرب العظمى الأولى (١٩١١) فلم تكن ضمن الموضوعات التي عالجتها الموسوعة لأن حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ كانت الأثر الفعال في اعطاء الدعاية أهمية عصبية لأن في مائة السنة السابقة لهذه الحرب كانت الدعاية لا تعدو أن تكون مجرد عمل خاص يقوم به الأفراد أو الدور التجارية أو جماعات تطوّعت لهذا الغرض، ورأت الحرب العظمى الأولى لأول مرة في التاريخ أن الدعاية تصبح ادارة من أدارات الحكومة فنظرية « اتركه يعمل » التي طفت في غضون القرن التاسع عشر حالت دون اضطلاع الحكومات بمهمة التأثير والاغراء كمهمة متميزة عن التزويد بالمعلومات ، وقليل من الحكومات في الفترة السابقة لعام ١٩١٤ أعارت التأثير على الرأي العام في الأقطار الأخرى الأجنبية التفاتها. وكانت المانيا الدولة الوحيدة التي أوجدت دعاية عن طريق مكتب الصحافة في وزارة الخارجية الألمانية بين مراسلي الصحف الأجنبية في برلين ، وعن طريق الوكالة التلغرافية الرسمية الألمانية . وعلى هذا الغرار قام الممثلون الدبلوماسيون الألمانيون ، وموظفو فروع البنوك الألمانية وشركات الملاحة بمهمة نشر المعلومات التي تتفق ومصالح وطنهم، ولا يقوم الدليل على أن هذا اللون من الدعاية التي نجاحاً إلاّ حيث كانت تظاهره المنافسات الاقتصادية المرتبطة بجودة المصنوعات الألمانية المصدرة ، وانخفاض ثمنها ولم يكن اندفاع حكومات أوربا إلى المعمعة في سنة ١٩١٤ إتباعاً لسياسة موضوعة ولكن

كان نتيجة عتومه للغرض التي تحملها ، والخوف الذي أضواها ، ونتج عن هذا أن رأت جميع الحكومات نفسها أمام ضرورة ملحة لتبرير دخولها الحرب أمام الشعوب التي تحكمها.

وقد أشار لورد برنستباي Ponsonby الى هذا بقوله : « يجب أولاً على الحكومة التي عزمت على خوض معركة الحرب الرهيبة الهائلة أن تعرض حالة ذات وجه واحد لتبرّر الحركات التي تقوم بها ، ولا تستطيع بحال من الأحوال أن تقوم على التصريح بأن الشعب الذي عقدت النية على محاربته له حجة ولو واهية أو حق ضئيل يتخلص به من تبعة اشعال فتيل الحرب . فالوثائق يجب أن تعوّه والظروف الملائمة يجب أن تستر كما يجب تقديم صورة تعري بألوانها الزاهية الفطرية الجهلة من الناس بأن حكوماتهم لا لوم عليها ولا تثريب وأن قضيتهم عادلة وأن شرور العدو أكثر وأعظم من أن تحويها مناقشة ولم تعد موضوعاً للتساؤل. ويجب أن تفسر الأمور تفسيراً أكثر وضوحاً في الدول الديمقراطية منه في الدول الاستبدادية . ولذا قصر الحلفاء جهودهم من أول الأمر على الدعاية داخل تخوم الوطن. ففي بريطانيا كانت الدعاية ضرورة لازبة أكثر من أي دولة أخرى للحض على التجنيد وشرعان ما صدع هذا الدافع مقاييس الحق والانصاف وشجع على رواج الغش والخداع. وفي مثل هذه الظروف توجد ثمرات قومية يسير فيها الأفراد قدماً ويتذرعون بالكذب كواجب وطني. زد على هذا قلب أوضاع الأحداث التاريخية وايجازها واستغلالها تفسيراً لأسباب الحرب . والذي يدعو الى الحرب في مثل هذه الدولة يستمسك بالجانب الخلقي في اعتداء المانيا على بلجيكا وغزو أراضيها ويؤلف قصصاً صادقة في أصلها ولكنها مكبرة يحدوها بالفظائع التي اقترفها الألمان في المراحل الأولى الناجحة من الغزو في فرنسا وبلجيكا . وكثير من هذه القصص استقصى المهتمون بالأمر حقيقتها في مصادرها الأصلية ، فاستبان لهم أنها تلفيق متعمد أو تشنيع وتهويل أو مغالطة صريحة في سوء نية عرض هذه القصص . ومن أمثلة هذه الترهات والأكاذيب قصة تعذيب المرضعة وبتر الألمان لثدي طفل بلجيكي وتحطيم مدفع في متاحف لوفيا وصلب جندي من كندا واعدام كشاف فرنسي رمياً بالرصاص واقامة مصنع للجثث الآدمية (حيث قيل إن الألمانيين يغلون جثث الأسرى لاستخراج الدهن منها لاستعماله

في الأغراض الحربية) وكانت الصحافة في هذه الآونة الأداة الرئيسية للدعاية وكانت الدعاية تصدر في رسائل ومنشورات .

ولكن كان للصحف الأجنبية النصيب الأوفر منها . ولما كانت هذه الدعاية قائمة على إثارة سخط الأهلين ضد حركات العدو فان الحقائق التي تكون هذه الدعاية كانت بالضرورة مأخوذة من ترجمة التقارير المدونة باللغات الأجنبية . وكان الخطأ في النقل عفواً أو متعمداً أحد الوسائل المنتظمة وأوفرها ثمراً في دعاية الحرب . وكانت تؤازرها الصور الفوتوغرافية المكذوبة والتزوير في أصول الوثائق وكانت نتيجة الدعاية ذات أثر قوي في الأغراض الحربية . وقد بلغ السخط القومي أوجه بهذه الحركة المليئة للمشاعر والتي حيّا زمناً أطول مما نقدّر له إذ نظر اليه نظرة قومية بحتة ، لأن الحفيظة التي أثيرت في بريطانيا خلال السنوات الأولى من الحرب حالت دون انتهاز الفرص فأسف لذلك كثير من المراقبين لمجريات الأمور . ومن أجلها تقدّم لورد لانزدون « بخطاب السلام » لحسم الأمر عن طريق المفاوضة بدلاً من إملاء شروط فرساي [1] وقد أفضى هذا السخط الى المناداة في انتخابات سنة ١٩١٨ بالنداء المشهور « اشنقوا القيصر » واليه تعزى الأخطاء التي ارتكبها الحلفاء في سياستهم مع ألمانيا ، تلك الأخطاء التي تشبثت بها الفترة التالية للحرب والتي أتت أكلها مرّاً علقماً فيما بعد .

وبينما كانت دعاية الحلفاء ترمي الى خدمة غرضها العاجل في إثارة حماس الشعوب المتحالفة كانت الدعاية الألمانية تعمل على غرس بذور أسباب معطلة للحرب ، في الدول المحايدة وأهداف الدول المحاربة في هذه الحرب ، وقد قويت هذه الدعاية بالنصر الفعلي الذي أحرزته الجيوش الألمانية في السنة الأولى من الحرب . ففي فرنسا ، ولفترة من الزمن كانت مقاومة الدعاية تنحصر في عدم السماح للصحافة بإذاعة نشرة الأخبار الرسمية الألمانية اليومية ولكن الرقابة أضرّت بالغاية التي تعمل لها لأن الصحف المحايدة والتي تعتمدت

(١) اكتب ويكهم ستيد كتاباً بعنوان « في عشرين عاماً » جاء فيه كيف هو بمساعدة صحيفة الديلي ميل أطلع لورد لانزدون وحلفاءه أضاع الفرصة من يد أوروبا لانزار الامور في سنة ١٩١٨ وتفاديها قيام الحركة النازية فيما بعد .

النشرات الألمانية تسرّبت اليها من الحدود السويسرية ، وتقوّت المطالب الألمانية بتداولها لأن القراء افترضوا ضرورة توفر الصدق فيها إذ ما منعت حكومتهم نشرها . ففي بريطانيا العظمى كانت نشرات الأخبار الرسمية ترد بنظام في الصحف السيارة رغم أنها لم تكن كاملة دائماً ، وبذلك تمكن الجمهور من أن يقارن النشرات البريطانية بتلك التي يذيعها العدو لا ليستخلصوا لأنفسهم النتائج بالنسبة للحقائق فحسب ، بل ليقدروا أي النشرتين كانت أقرب الى الصدق والعقل. ففي الشهور الستة الأولى من الحرب كانت الصحافة في بريطانيا مكمة تماماً برقابة حكومية قوية ورقابة دولية غير رسمية يشرف عليها أصحاب الشركات الصحفية. ولم يصرح الحلفاء للمراسلين الحربيين بمرافقة الجيوش فانتهى الأمر بأن حلت الاشاعات محل المعلومات ، وتداول الناس هذه القصص مثل مرور الجيوش الروسية داخل بريطانيا في شتاء سنة ١٩١٤ ، وبدأت قوة الصحافة في الانتعاش سنة ١٩١٥ عندما ظهر أن السياسة الفجة التي اختطتها الرقابة لم تكن رشيدة مثمرة وأضحى من الجلي أن التغيرات السياسية والحربية ضرورية لكسب الحرب وبدأ المزج بين سياسة « اتركه يعمل » وبين الرقابة برسم طريقاً لتنظيم مقرر للدعاية . أما في المرحلة الأخيرة من الحرب فقد ازداد توجيه هذا التيار كثيراً نحو التأثير على العقول الأجنبية بطريقتين :

(١) حمل الدعاية الألمانية عبر البلاد المحايدة وأمريكا وإقناعها بالحق الأولي للدول المتحالفة (٢) إضعاف الروح المعنوي القومي في ألمانيا وحليفاتها . ولم تنتظم الدعاية في بريطانيا إلاّ بعد أن سلخت الحرب ثلاث سنوات وستة أشهر من عمرها . وفي ديسمبر سنة ١٩١٦ وجه الرئيس ولسن الدعوة الى الدول المحاربة لتحدد كل منها أهدافها الحربية وفي يناير سنة ١٩١٨ أجاب مستر لويد جورج على الدعوة في ملخص لشروط الصلح انتهى بالرئيس ولسن بعد ثلاثة أيام بالتنصل من المبادىء الأربعة عشرة التي اشتهرت عنه ، والتي قصدت الولايات المتحدة التمسك بها في مفاوضات الصلح. وكانت عروض الرئيس ولسن ورد المستر لويد جورج عليها دعاية للدول التي صدرت عنها وصاغتها وان لم تكن دعاية متعمدة في الواقع . وانها لصعوبة مفروضة أن تقوم بدعاية فعّالة ما لم تكن قد رسمت خطوط السياسة التي ستتبعها لأن الدعاية لا تشكل السياسة ولكن يجب أن تتبعها وتدير خلفها .

وبعد شهر من الزمان في فبراير سنة ١٩١٨ — عين لورد نورثكليف مديراً للدعاية في البلدان المعادية، وبذلك يكون الرائد الأول في فن الدعاية الحديثة، هذا الفن الذي خلقته ظروف الحرب. ولقد انشأ لورد نورثكليف إدارة في كروهاس Crewe House واختار لجنة استشارية من مشاهير العلميين والناشرين ضمت أمثال هـ ج. ويلز وسمتر ويكهام ستيد) ونجح في إيجاد تعاون بين إدارته والإدارات الحكومية الأخرى. وقرر في النهاية بتكوين مجلس دعاية مختلط للحلفاء. وكان دستور العمل في الإدارة الجديدة كما عبر عنه جيداً ويكهام ستيد في النصح الذي أسداه إلى لورد نورثكليف عند تقلده مهام وظيفته[1]

«تولد عقم الدعاية البريطانية من خلوها من حسن السياسة والتدبير فلا طائل يرجى من إغراق العالم بأطنان من الآداب تصف محاسننا ونبل أخلاقنا وضخامة استعدادنا الحربي فهذا لا يغني الناس بشيء إذ يجب عليك أن تعتقد الخناصر أين وكيف يمكنك أن تكيل الضربات قاصية بريرة تعدو وهنا ابدأ عملك واعمل دون أن تتحدث عنه والوصول إلى ذلك يجب أن تكون هناك سياسة مرسومة فإذا ظفرت بالتأييد وجب تنفيذها بشتى الوسائل الممكنة»

وكانت همة كروهاوس موجهة ضد المانيا والنمسا والمجر وإلى بلغاريا ولكن بدرجة أقل وكانت الطرق المتبعة دعوة المؤتمرات الى الانعقاد لوضع ملخص الخطة السياسية ويقدم هذا الملخص إلى السلطات المختصة للحصول على موافقتها الرسمية. وحينئذ يمكن تنفيذ الدعاية على أساس الخطط المرسومة إذا ما لقيت الموافقة فأخذت هذه الدعاية صورة الوعود بمنح الحرية والاستقلال إلى الشعوب المحكومة في البلدان المعادية. وقد تجنبوا في حذر الإدلاء بتصريحات متعارضة أو الوعد بأمان خلابة لا يمكن تحقيقها. وحيث كانت البلدان مرتبطة بألمانيا كانت الدعاية موجهة إلى بيان أوجه الخلاف بين قوات الحلفاء المتزايدة والبؤس الذائع بين شعوب أوربا الوسطى المحصورة والضعف المتفشي فيها.

كانت الوسيلة الرئيسية التي اتبعها كروهاوس إلقاء أوراق ونشرات من الجو خلف

(١) في كتاب «عشرون عاماً» الذي كتبه سمتر ويكهام ستيد (١٩٢٤) يظهر هتلر في كتابه كفاحي بمظهر أحد تلاميذ ويكهام ستيد في قوله. «تعد الدعاية إعداداً يتناسب وعقلية الجماهير ويحكم على صدقها بصفة عامة، بمدى أثرها الخفي»

الحقيقة الألمانية تحوي أخباراً من القتال الدائر الرسمي أو معلومات عن قوة الحلفاء وضعف ألمانيا. ولقد ألقي حوالي مائة ألف نشرة يومياً خلال شهر أغسطس سنة ١٩١٨. وفي خلال شهر أكتوبر من نفس العام ألقي خمس ملايين ونصف مليون نشرة كانت أساسها الدراسة العميقة للنفسية الألمانية مبنية على الأسرار التي حصل عليها كروهاوس: وزيادة على النشرات المشار إليها المتضمنة أخبار نجاح القوات المتحالفة موضحة بالخرائط والمصورات أعدت صحيفة سرية نسجت في أسلوبها نسج المطبوعات الألمانية وأعدت إعداداً جذاباً سهل تناولها. وقد ظهرت هذه الصحيفة وأمثالها في أرض ألمانيا تزينها صورة الامبراطور مقرونة باسمها وكانت تعد القارىء بمادة دسمة طريفة ممتازة تلمس الأوتار الحساسة من قلب الجندي الألماني وتكشف له عن حقائق كانت تمنع عنه حتى ذلك الوقت . . وكانت بعض النشرات دينية النزعة لأن في الخلق الألماني حساسية دينية قوية . وكانت هذه النشرات تعزي هواتم الألمان الحربية المتتالية إلى الخطايا والآثام التي تقترفها حكومتهم. وكانت إحدى هذه المقالات موعظة قصيرة على نص الآية[1] «فقال الرب لقايين لماذا اغتظت، ولماذا سقط وجهك، وإن أحسنت أفلا رفع وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وإن تسود عليها» وكان دعاة الحلفاء يتلاعبون بالحجج دائماً بأن المعلومات التي تذاع هي صدق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وتقتبس للمرة الثانية من أسرار كروهاوس أن « البديهية الأولى في الدعاية هي القول الحق » ولكن كان هذا في الواقع يحمل أكثر مما كانت الدعاية الانجليزية تستند في قدر الصدق والصراحة . والخطيئة الوحيدة التي جنتها الدعاية النشر المبتسر وإذاعة الأكاذيب فيما تذيع . ولكن كان من بين الوسائل التي التجأت اليها الدعاية البريطانية إرسال « خطابات لندن » الى الصحف المحايدة في سويسرا أو دول الشمال على رغم أنها مكتوبة بروح ألماني ولكنها تحوي في الحقيقة دعاية في جانب الحلفاء فانخدعت الصحف الألمانية وتناولت هذه الخطابات وأعادت طبعها على أنها بكر. وكانت هذه الخطابات بالنسبة للألمان حملة لنشرات حوت خطابات الأسرى الألمانيين مزورة مدسوسة عليهم وطبع اقتباسات مضللة منها وتوزيع مختارات ورسائل مبهورة بترقيعات شعراء

(١) سفر التكوين الاصحاح ٤ (٦ - ٧)

الألمان وقول كتّابهم وعبقرة ساستهم وإن هي إلا كذب . وكان يدّعي أنها طبعت في ألمانيا وكفى أنها تحمل عنوان سلسلة « الركلام » المشهورة . وفي النهاية لما كان كثير من دعاية الحلفاء قائماً على نشر الأقوال الخاصة بالدعاية المتحدة والتي لم تنفذ فيما بعد قبل نقض شروط ولسن الاربع عشرة فرغم أن الدعاية دقيقة كاملة في معناها الثانوي الا أنها مضللة في معناها الاساسي لأن أساسها خطط كاذبة .

وبجانب توزيع النشرات لعب المذياع دوراً خطيراً في نشر المعلومات وأشرف على توزيع الأفلام في الخارج هيئة دولية في سويسرا . وقد استغلّ الحلفاء قسط الحرية الذي تمتع به الموالون لهم أعظم استغلال . فأمكن تهريب الكتب المطبوعة داخل ألمانيا لدس الدعاية التي تروج حواليها في قناع الأدب الجاد ووكالات أنباء الدعاية التي تظهر بمظهر الاستقلال والاكتفاء الذاتي تأسست في البلدان المحايدة وعملت التسهيلات اللازمة لارسال صحف الحلفاء الى ألمانيا. ولسنا في حاجة لأن نقول ان المراسلين الحربيين للصحف الأجنبية والمحايدة كانوا تحت رعاية مناسبة. وكانت الطرق المقاومة للدعاية في ألمانيا عبئاً باطلاً لا طائل تحته . فمثلاً كانت تمنح الجوائز للذين كانوا يقومون بجمع النشرات واتلافها . وقد وصف الجنرال لندندورف في مذكراته تأثير دعاية الدول المتحالفة وصفاً دقيقاً قال « كان لورد نورثكليف سيد الموقف يوحي ويحيه الى الجماعات . هاجمتنا دعاية العدو بتهريب التقارير والمطبوعات الى بلادنا عن طريق الدول المحايدة خصوصاً هولندة وسويسرا وطغت علينا بنفس الوسيلة في النمسا . وفي نهاية المطاف مزقتنا في عقر دارنا من الجو. وقد فعلت الدعاية معنا هذا بوسيلة وقدر لم يستطع معهما السواد الأعظم من الناس التمييز بين إحساساتهم وبين ما تقوله دعاية العدو . . وكان لزعزعة الثقة العامة في أوض الوطن أثر عميق على الروح المعنوي الالماني وقتلت فينا الرغبة في القتال » . ويمكن سرّ دعاية الحلفاء في تعاونها الفعّال مع لورد نورثكليف فإن الألمان في أغسطس سنة ١٩١٨ حاولوا تنظيم وزارة الدعاية الامبراطورية في بلادهم ولكن لم يتمكنوا من السيطرة على الموقف إطلاقاً . وقد عانت جهود دعايتهم من الاضطراب بينهم والقفزات السريعة في عملهم وضاعت كل الجهود هباء . ولم يضع الدرس الذي ألقاه لورد نورثكليف على ألمانيا سدًى ولكن لم تنضج ثماره قبل الثورة النازية في عام ١٩٣٣ .

الدعاية

أسباب نجاحها

عُدّت الدعاية علماً . ولكن ليس علماً بالمعنى الدقيق للعلم ، أعني يمكن تطبيق قواعد ثابتة وقوانين راسخة على ما يعمل من دعايات يقوم بها الأفراد أو الجماعات ، لأن مجال الدعاية متراحي الأطراف متشعب الفروع وطرقها غامضة غير معبدة ومسالكها شائكة وعرة . فميدان الدعاية ومجال لعاملها يتصل بالعقول مؤثرة في الحوادث ، ومتأثرة بها . والعقول والحوادث عنصران يخضعان لعوامل متغيرة متقلبة ، أبعد ما تكون من صفات الثبات والاستقرار . ثم ان الداعية يخدم مبادىء ثابتة يضعها نصب عينيه ، ولكنها في نفس الوقت مطاطة فضفاضة . ويتوقف مقدار نجاحها على مدى تمسكه بهذه المبادىء ، إزاء ما يلاقي من مشاكل أو ما يواجه من عقبات ، أو إهماله أمر هذه الأسس وتلك المبادىء .

وقد فطن القائمون بأمور الدعاية الى ميدانها الواسع الفسيح وعرفوا أن هنالك طريقة مباشرة آلية تعمل على سحق المعارضة جهراً وعلانية ، وأخرى غير مباشرة وهي وسيلة دقيقة حذرة عاقلة ، توحي بالآراء التي ترى بثها في قلوب الناس في كياسة ولباقة ، فلا يفطن الى ما يتسرب الى أذهانهم من آراء طريفة ومعتقدات جديدة . ويستقر في روعهم انهم قد وصلوا إلى ما وصلوا اليه من آراء وعقائد بمحض قوة ملاحظتهم ، ودقة استنتاجهم ، ولكل من هاتين الوسيلتين — المباشرة وغير المباشرة — قيمته وأثره في المحيط الذي خلقت له ، ولكن الداعية الذي يعتمد على الطريقة غير المباشرة ، أمامه مجال أوسع وأفسح لمدى نشاطه وهمته . والداعية لكي تكون له المقدرة على إملاء رأي من الآراء على جمهوره ، يجب أن يستند الى هيئة سياسية منظمة تشد من أزره وتكون له عوناً ، كما يجب أن تكون له شخصيته القوية البارزة في جماعته ، المسيطرة مباشرة على أولئك الذين يود التأثير فيهم ، فإذا تشعبت الأغراض وتفرعت الأهداف حيث يجب أن تلتقي وتتصل بعضها ببعض ، فإن الاغراء هو الوسيلة التي يجب اتباعها وهي وسيلة لها أهميتها ومبررها ،

إذ هي كفيلة باكتساب أتباع أشد اندفاعاً وأقوى ثقة بما يؤمنون . والفرد المأسور « الرجل الذي يقتنع قسراً وضد إرادته ، يبقى على رأيه القديم » غالباً ما يتردد وقعه على أذني الداعية فيحيره في أمره ، بينما نجد أنه عندما يلجأ الى الاغراء يثبت الغرور الكاذب والخيلاء الباطلة في أذهان أولئك الذين اعتنقوا المذهب الجديد ، إذ أنهم يؤمنون إيماناً صادقاً أنهم قد وصلوا الى ما وصلوا اليه من آراء ومعتقدات عن طريق العقل ، أحراراً مستقلين ، لم ترغمهم قوة أو يخضعهم سلطان ، ولذا يكون من الصعب تحولهم ، إذ يجب عليهم في هذه الحال الاعتراف بما وقعوا فيه من أخطاء وبخاصة أن ليس هناك غيرهم يلقون عليه تبعة هذه الأخطاء ، ولذا فهم يميلون الى مقاومة كل حجج تتعارض وميولهم ، حتى ولو كانوا في دخيلتهم يصرحون بأنّ لها قوتها ووجاهتها .

***

ولأجل أن يضفي الداعية صفة البساطة والسهولة على ما يدعو اليه من معقد الأمور ، وضعت سبعة أسس سميت أسرار نجاح الدعاية السبعة . والداعية الذي يطبقها في حملاته المستمرة يتيح لنفسه فرصاً طيبة للفوز ، ولكن هذا التحديد يؤكد لنا بأن الداعية كثيراً ما يكون تحت رحمة الحوادث . ولا أهمية لمهارة الداعية أو مثابرته أو حسن اعداد خطط الدعاية وانما النجاح موكول للظروف ، إذ أن الداعية معرّض في كل وقت لخطر الهزائم المنكرة بسبب التغيرات الفجائية في مجرى الأمور والتي ليس له عليها من سلطان ، لأن العواطف وتذبذبها والأهواء وتأرجحها من أكثر العوامل تحيراً للعقول إزاء القضايا العامة لأن الشرارة التي تبث الحياة في حركة من الحركات تخبو لغير سبب ظاهر . والدافع اليها يضمحل دون مبرر ملحوظ . فان معبودات جيل من الأجيال تحت رحمة محطمي الأصنام في الجيل التالي ، فاذا ما أخذ الداعية التكوين النفسي لمجتمع من المجتمعات أو جماعة من الجماعات على انه ثابت لا يتغير ، فقد ارتكب أفدح الأخطاء وأنكرها ، فيجب عليه أن يكون دائماً على حذر وأن يعد سياسته بحيث تتفق ونفسية الجماهير . والقواعد السبع الآتية لها أثرها الفعال وهي دستور الدعاية .

سر نسيان الجمهور

١ — التكرار هو السر الأول من أسرار نجاح الدعاية : ومن سرعة نسيان الجماهير ما نراه منها في حادث من الأحداث يلمع فجأة في وسط الظلمات ، وينتقل برقاً الى السطور الأولى في الصحافة ، ثم سرعان ما يخبو ضوؤه وتتزاحم الحوادث الواحدة أثر الأخرى قبل أن يجد الجمهور فسحة من الوقت ليتعرّف أهمية هذه أو خطورة تلك ، ولكن يطوي النسيان هذه وتلك معاً وفي سرعة فائقة . ففي قضية قتل ، مثلاً ، يتهم فيها عامل زراعي أبي مجهول مغمور، تتداولها ألسنة آلاف مؤلفة بالذكر والترديد . ولكن سرعان ما ينسى هؤلاء كل ما يتعلق بالقتل والقاتل، ولا يعودون يذكرون حتى اسمه في مدى شهور قصيرة . ثم لنذهب الى الطرف المقابل لذلك . سيأتي خطاباً تتخاطفه أسلاك البرق في مختلف مناحي العالم وتتداوله الأقلام والأفواه بالنقد والتعليق في الصحف ومن أعلى أعواد المنابر، كما تشغل ذهن رجل الشارع فيناقشها مستحسناً أو مستهجناً لها ، ولكن سرعان ما يسدل عليها وعلى ما أثارت من ضجة ستار النسيان ، فكم منا يذكرون ، اذا سئلوا ، تصريح مستر صمويل هور المشهور الذي ألقاه في جمعية عصبة الأمم عام ١٩٣٥ عما بذلت بريطانيا من جهود ليكف موسوليني عن نهامه في الحبشة ، بأن عرضت عليه عرضاً جديداً بشأن اعادة النظر في مشكلة المواد الخام .

وفي ضعف ذاكرة الجماهير والجماعات يقوم نجاح الدعاية وانتصارها الباهر أو يكمن فيها فشلها الذريع . هذلك الضعف يساعد الداعية على أن يمهد مسلكه دون أن تلتفت اليه الأنظار ، وفي نفس الوقت تلقى على كاهله واجبات وتحتم عليه التزامات . فيجب أن يكرّر ويعيد دون أن يمل . ويجب على الداعية أن يقف إزاء ما يقع من الأحداث في كل يوم متحفزاً للعمل دائماً لا يفتر ولا يلين ، فاذا كان عمله مقصوراً على أن يبعث برسائله وتقاريره إلى رجال خاصين للدولة ونظمها الاجتماعية والسياسية في كل ما يعملون ، كان عمل الداعية في هذه الحال سهلاً يسيراً بالقياس الى غيره .

ولكن إذا كان الداعية يعمل دون أن تظاهره قوة رسمية ، بل وربما كان يعمل مقاوماً

الهيئة الحاكمة أو محاربا النظام الاجتماعي القائم، وجب عليه أن يكون ملمًّا بما تقدم من الأمور أو تشعب وتشابك سماه، بأن يعرض الموضوع الواحد في صور لا عدد لها ولا حصر مختلفة الأوضاع متعددة الألوان، لأن التكرار يورث الملل والسأم إذا لم يصطبغ في كل مرة بصبغة الجدة، ويقعد الجمهور عن الاهتمام بما يدور حوله من مناقشات. ولكن الداعية إذا ثابر واكتسب إلى جانبه أعضاء جدد يتجهون اتجاهه ويأخذون برأيه ويؤيدون دعوته، لأنه لا يلبث أن يظفر بتأييد بعض طبقات العامة، وفي الوقت المناسب تصبح الدعوة التي ينشرها وآراؤه التي يبشر بها سدى العقول ولحمتها.

التكرار، التكرار، التكرار. ليكن هو رائد الداعية فإن من المؤكد أن في كل مكان وزمان يوجد فريق من الناس يحاجون أو يناقشون ويتولون بالنقد أو التقريظ موضوع الدعاية أيًّا كان هو، لأن العدو اللدود لأمر من الأمور هو إهماله ونسيانه أو تناسيه. والحملات العنيفة، قطعًا، أفضل له من تجاهله، فمثلاً لما قذف المتدون سير صامويل موزلي بالأحجار في اجتماع عام، قامت الصحف المعارضة تطالب بأن يترك وشأنه وحيداً أعزل دون حماية أو رعاية. ولكن سرعان ما أدركت الصحف جميعاً إنها كانت حمقاء وبسبب حماقتها تحولت الأخبار الهامة الى الصفحات الامامية والسطور الأولى في الصحف وإن كان زعيم الحركة الهامية وهو سير صموبل موزلي قد دفع ثمن هذه الدعاية غالياً. ولكن مما لا شك فيه أن الحادث كان دعاية ناجحة غاية النجاح.

يمثل هذا الحادث عنصراً أساسيًّا في الدعاية الصحافية التي تراها التكرار. وجرت العادة أن تكون كل جرعة من الدعاية لها قيمتها الاخبارية، لأن قيمة الأخبار في الصحافة الحديثة لها قدرها وخطرها والحكم عليها قاس لا يرحم. وليست المضغة في ملء أعمدة الصحيفة ولكن أن تضغط أخبار أربع وعشرين ساعة في حيز ضيق أمر يدعو إلى الفكاهة بالقائمين بشئون الصحافة. وهناك نوع من الاعلانات الاخبارية المقنعة ويطلق عليها بالانجليزية Puffs (وهي إعلانات طيبات تجارية أو سياسية توضع في صيغة أخبار دون أن يلحظ القارىء أنها مقصودة لمجرد الاعلان)، وقد أصبح الاعتراف بها حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، كما لا يمكن تفاديها بحال، رغم ما تلقى من معارضة شديدة حدت بالمشرفين

على الصحافة الى ضغطها واختصارها إلى الحد الأدنى . والداعية الذي يعتمد على أوساط الحلول في عمله ، لا بُدَّ أن يجد نفسه ملاحقاً فيجب عليه أن يصل بدعايته إلى الذروة دائماً وإلا أعطى خصومه الفرصة أن يجددوا ثقتهم ويقدموا معها إلى محاربته .

الرئيس ومصارع الثيران

٢ — اللون هو الأساس الثاني من أسس الدعاية السليمة : لا يعبأ الفرد العادي بالمعنويات ولكنه يهتم كثيراً بالشخصيات والحقائق . وقد أدرك اساعية الحديث هذه الحقيقة ، فهو لا يحاول فرض حجته فرضاً على العامة ولكنه يسعى بنشر تقريراته التي يذيعها الى كسب العطف على قضيته أو لإثارة السخط على خصومه ، وغالباً ما يكون لمثل هذه الدعاية أثرها الفعال . ويجيء هذا الأثر عن طريق الحوادث يجمعها وتكون في مجموعها مادة غارقة لعادة تترك أثراً عميقاً في النفس وان كان خادعاً . لان من عادة رجل الشارع أن يناقش الاشياء الخاصة وينتهي بها الى مبادىء عامة .

ولا يمنع الداعية أن يلتفت كثيراً الى هذا المبدأ عندما يكون هدفه التأثير في الجماهير. فبينما نرى القارىء يرتاح مسرعاً عن الدعاية السيئة القائمة على معاهدة الدول التسع ، نراه يقبل في حماس وشغف على قصة شارلي سنج الذي هاجر مفلساً معدماً الى الولايات المتحدة والذي غدت بناته الثلاث فيما بعد قابضات على السلطة في حكومة الصين وحالتها ومدام شيانج كاي شك إحداهن ، ويلعبن دوراً خطيراً في تاريخ الصين الحديثة .

والمتكلمون من الطراز الأول وخطباء الطليعة يدركون ويعترفون بصحة هذا المبدأ . فلا بدَّ وأن يتأكدوا من أن كل فرد من جمهور المستمعين يتتبع بشغف ما يناقشه الخطيب أو المتكلم ، لانه ليس من الصواب أن نرغم الاقلية على تتبع ما نقول إذا كان في نيتنا ما نريد من آراء ما يخص الأغلبية الباقية من المستمعين ، والأجدى لنا أن نخاطر بالابقاء بأعدادٍ من هؤلاء معرضة بادية للعيان الى الأقلية الناهزة من أن نسخر الأكثرية بما نقول .

ومما يقوي هذا القول حقيقة أن من السهل على غالبية الناس أن تتبع بحثاً مطبوعاً سهل

التناول مدعماً بالأدلة والبراهين ، من أن يستمعوا الى هذا البحث نفسه من فم خطيب على منبره ، فان الجهد الذي يبذله المستمعون لحصر إنتباههم في أثناء الخطابة ، أعظم منه في حال القراءة الهادئة الصامتة .

وفطن المرء متنبه الى هذه الحقيقة واستوعبها فصار هذا المبدأ أحد القواعد الأساسية التي يسترشد بها ، وإذا ما قارن نفسه بوليد جورج وبنيام هولوج [1] فهو يعزو عظمة السامي الانجليزي المنقطعة النظير الى البساطة التي يتمتع بها والتي لها السحر المبين في أذان السامعين ، فالسهولة التي تصبغ خطبه ، واليسر الذي يتحلى في تعبيراته ، والصور الواضحة الهينة التناول التي يوردها في أحاديثه دليل قاطع على قدرة رجل ويلز [2] السياسية الفائقة .

ولا يقتصر هذا على الدعاية الكلامية بل يشمل الدعاية الصحفية أيضاً ، فواجب الكاتب أن يكتب في حدود الكلمات المألوفة لدى القراء ، ويجب عليه أن يستغل ميولهم ويقيد من جهلهم ، ولكي يوضح « وول ايرون » هذه النقطة يروي القصة التالية عن الحرب الاسبانية ، فان الصحافة الاقليمية في هذا البلد كان من السهل على الداعية شراؤها بالمال تنفقه لتعيش وتبقى . نشرت هذه الصحف قصة ما عنت الصحف الكبرى أن تنشرت القصة ذاتها وهي تصف أن إحدى كريمات الرئيس ولسن أحبت في أثناء زيارة لها في « بيرجوس » مصارع ثيران ، ثم ما لبثت أن تزوجت منه ، وأثمر هذا الزواج طفلاً ذكراً . ولكن الرئيس صلب القلب متحجره ، فأرغم ابنته على العودة الى أرض الوطن وهجر زوجها والتخلي عن وليدها . ولم يمض وقت طويل حتى لقي البطل حتفه في حلقة السباق وأسلمت الأقدار الطفل الى جديه المعدمين اللذين كتبا للرئيس ولسن يستجديانه بعض المال لتربية حفيده ولكن ضاعت جهودهما سدى ولم يظفرا منه بطائل رغم الإلحاف في السؤال .

فالداعية الألماني الذي نسج خياله هذه القصة كان يعرف أن الرئيس ولسن هو الشخص الامريكي الوحيد الذي يسمع عنه الفلاحون الاسبان . وان الاسبان غراماً بالاطفال لا تفوقه غرام ، وان بطل كل اسباني واسبانية هو مصارع الثيران . وسخف هذه القصة في انظار

(١) كبير وزراء انكلترا في الحرب العالمية (٢) وليد جورج كبير وزراء انكلترا في الحرب الاولى

الناسبين بعادته ويقابله تقدير لعبقرية مخترعها حيث تمكن أن يخلق جوًّا يبدو فيه صادقاً صدقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وقصص التعذيب والارهاب تزدهر أيما ازدهار في جوّ الحروب الخانق المسمم . فانه من الضروري جمع وتركيز الكراهية القومية على العدو وعرف الدعاة أن خير الطرق لتنفيذ ذلك هو أن نعطي العواطف حركات مسرحية ونصبغها بألوانها ونضيئها بأنوارها ، ويكون ذلك بالتركيز على شخصيات البارزين فان مطامح الخيال وسماحاته في ابتكار قصص التعذيب أو تحويرها أو مسخها حتى تلائم الهدف الذي يُرمى إليه ، وقد وصلت آماداً بعيدة وبلغت آفاقاً نائية في الحرب الكبرى الماضية (١٩١٤ — ١٩١٨) بصورة تدعو الى الدهشة والاعجاب . وقد انغمس كل من الجانبين المتحاربين في ابراز صور التعذيب وألوانها . ولكن كان لدعايات الحلفاء نصيب أوسع وأكبر من الذيوع والانتشار من دعايات الأعداء لسيطرة الحلفاء على طرق المواصلات وتحكمهم فيها ، فقد كانوا سادة الموقف والقابضين على ناصية الأمر .

وقد أفاد الحلفاء ، ولا مراء ، مما ارتكب الألمان من أخطاء فاحشة فان «كابتن فريت» عند ما حاول أسر غواصة ألمانية بسفينة تجارية غير مسلحة ثم أحرق ، أعلن الألمان أن حقه كأسير حرب قد سقط ، وأعدموه رمياً بالرصاص . وقد هزّ إعدام هذا البحار الجريء ، العالم أجمع وألحق بالقضية الألمانية خسارة لا تقدّر . فقد استغلّ الدعاية هذا الحادث ، كما استغلّ حادث المعركة « إيديث كافل » من قبل عند ما صوّر الحلفاء بطولتها في جلال وتعظيم جعل حياتها مشكاة تضيء ظلمات سني الحرب السود . فإن الهيئة التي أصدرت حكم الإعدام كانت من الضباط وقصر النظر لدرجة ظنت معها أن موت « إيديث » لا يهم . فطالما أعدم كثير من النساء من كلا المعسكرين ، من قبل . ولأنها كانت تشترك فعلاً في مؤامرات سرية تدبر خلف الخطوط الألمانية ، فكيفت المحكمة باصدارها حكم الموت عن جهل مطبق بالطبيعة الانسانية والنفس البشرية .

وكان للحلفاء أيضاً ميزة كشّابها البارعين والرسامين والصانعة الذين كانت كتاباتهم ورسومهم مرّة المذاق شديدة الوقع على الأعداء ، فانه من المستحيل أن تنظر إلى إحدى

صور « زاغيكي » الهولندي دون أن تؤس بمدى المعونة الهائلة التي قدّمها للحلفاء ، فقد صوّر في احدى روائعه اعتداء الالمان على السفن الحايدة واغراقها في لوحة تمثل اجتماع شرذمة من جنود الالمان اجتمعت متهالكة على نفسها في برج الحراسة في غواصة حيث يراقبون اقتراب زورق وقف به السيد المسيح وكتب تحتها عبارة وجيزة ولكنها بارعة : «إنه يبدو محايداً» فلنغرقه » . مثل هذه الصورة كان لها تأثير صدع أركان الدعاية الالمانية، وقوّض أسسها في نفوس الحلفاء حينذاك .

٣ — الدعامة الثالثة من أسس الدعاية

يجب أن تكون الحقيقة البذرة الأولى الدعاية فتقوم على قدر ولو ضئيل من الصدق . وان كان هذا يبدو انه يتعارض وقصص القسوة والوحشية في التعذيب التي أشرنا اليها في الركن الثاني ولكن حتى في قصص التعذيب هذه كانت الحقائق دائماً قوام صور الرعب والفزع التي يرسمها الدعاة

ولنضرب لذلك مثلاً بالجيش الالماني الذي كان يأخذ الرهائن من كل قرية فرنسية وبلجيكية في أثناء الحرب العالمية الماضية فاذا زاد نشاط الارهابيين وعمال القتل والتخريب فيما جاورهم وتلا نشاطهم كثرة عدد ضحاياهم من الجنود الالمان ، أعلنت السلطات الالمانية الرهائن رمياً بالرصاص . وكان يتلو ذلك صدور الأوامر المتعددة بأنه في حال وقوع اعتداءات على الالمان سواء في المدن أو القرى فان المنازل التي تحوم حولها الشبهات تدمر وتمحى ويقتل جميع من فيها من رجال ونساء وأطفال . وكانت هذه القوانين صارمة كل الصرامة عنيفة كل العنف ، لا صلة بينها وبين الشفقة والرحمة ، فقد سُنّت لتحول دون ضعف الروح المعنوي للقوات الالمانية. وانه لمن السهل اليسير أن ندرك الى أي حد وجدت هذه الدعايات في البلدان المتحالفة المجاورة ، تربة صالحة خصبة نمت فيها وازدهرت وهيأت العقول لقبول ما يردّده الحلفاء عما يرتكب الالمان من تعذيب .

ومن جانب آخر ، فان مكافحة خطر الغواصات كان قائماً على الحقيقة ، فقد كانت المانيا تحارب وظهرها الى الحائط ولم يكن في مقدورها أن تتحدى أسطول بريطانيا الجبار ، وكانت الغواصات ضرورية لوقف وصول سيل الذخائر والأطعمة والمواد الخام الى البلدان المتحالفة . وبنفس الطريقة عقدت بريطانيا وحليفاتها الحناصر على منع وصول الامدادات الحيوية الى

المانيا . ولكن أسقط في يد دعاة الالمان عند ما حاولوا أن يطلقوا هذا على الملأ ، لأن في اعلان نجاح الحصار انهياراً لدعواهم بأثر عواصاتهم في أسطول الحلفاء بينما كانت كل قذيفة تطلق وكل سفينة تجارية تغرق وكل بحار يغرق دليلاً قاطعاً وحجة دامغة على صدق ما يقول الحلفاء ، وصارت مادة خصبة تغذي دعاية الحلفاء ، ومعيناً لا ينضب يردونه فيغترفون منه مادة دعايتهم كل يوم .

والمبدأ القائل بأن لا بدّ لنجاح الدعاية من أن يكون لها قسط ولو صغير جداً من الحقيقة يقصد به ضرورة توافر عنصر الصدق فيها ، فان كذبة صارخة قد تترك أثراً وتأتي بفائدة ، ولكنه أثر قد لا يكون عميقاً ، وفائدة ولكنها وقتية ، ونجاحها محتمل وعلى شريطة أن يلحق بها قبس من الصدق يبدّدها قبل أن تصل إلى هدفها.

وفي الحرب الحبشية الايطالية والحرب الاسبانية الأهلية وفي الصراع الذي نشب بين الصين واليابان ، استغلّ المعارضون قصص التعذيب استغلالاً فاق كل حد قصد الظفر بتأييد المحايدين . فحاول الايطاليون ، مثلاً ، إن يظهروا في غزوة الحبشة بمظهر الصليبيين جاءوا لتحضير المتوحشين وتمدينهم . فأغرقوا الشعوب المحايدة بمنشورات سجلت صوراً بشعة لما يرتكبه الاثيوبيون من ضروب الهمجية وألوان الوحشية . ومن هذه صورة حية تنطق بما يدّعون ، تلك التي صوّرت ما ذاقه هؤلاء الايطاليون الذين ألقى بهم سوء طالعهم في أسر القبائل الاثيوبية الموغلة في الوحشية والهمجية ، وقد وزعت هذه الصور في جنيف قبل أن تصدر عصبة الأمم حكمها النهائي في تلك الحرب .

وصوّر أصدقاء الاحباش الايطاليين يشقون طريقهم إلى أديس أبابا خلف سحب كثيفة من الغازات السامة وأبرزوا التقارير الطبية المنزهة عن الغرض دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على صدق ما يزعمون ، ولكن حملتهم باءت بالفشل ولم تلق ما قدّر لها من النجاح والتأييد فقد كانت الشعوب على استعداد ليصدقوا إن الايطاليين استخدموا الغازات المُسيلَة للدموع وإن الأدخنة المتصاعدة من القنابل المحرقة تفعل بضحاياها ما تفعله الغازات السامة من حيث الأثر الذي تتركه كل منها .

وفي الأشهر الأولى من الحرب الاسبانية الأهلية وقع كثير من مآسي التعذيب من

كلا الجانبين ما في ذلك شك ، لأن الحروب الأهلية لا تعرف الرحمة ولا تدخل الشفقة فيها بل كل الأثر فيها للعواطف الثائرة الجياشة الصادرة عن جنون المبادىء وتقديسها ، فان آلافاً من الذين اشتركوا في النضال شعروا بأن الشيوعية تتفتح سمومها والفاشية تنشر وباءها وكلا الخطرين يمكن زواله بزوال مصدره ، ففي بداية الصراع دأبت الصحافة البريطانية — باستثناء صحف اليسار منها — على ان تعلق أهمية على ما وقع على جانب الحكوميين في اسبانيا من وحشية ، ولكن عندما تدخل الالمان والطليان إلى جانب « فرانكو » تدخلاً سافراً ، غيّر عدد غير قليل من صحافة حزب اليمين النغمة السابقة فقد صارت الفظائع واضحة معروفة .

وكانت الحكومة البريطانية الداعية الذي لا يمل ولا يفتر . فظلت دور الصحافة البريطانية شهوراً طويلة تتسلم من « فالنسيا » حزماً حوت صوراً (فوتوغرافية) للأطفال الذين فتكت بهم طائرات « فرانكو » ، وقد طبعت هذه الصور على ورق حقير بخس الثمن فكان من المستحيل إعادة طبعها وكان القصد الاساسي منها أن تعطي الصحافيين الانجليز صورة واضحة عن فظائع الغارات الجوية ، وقد أرسلت هذه الصور (الفوتوغرافيات) من باريس وطبعت ونشرت ، بحسن نية ، في لندن .

ولما تقدمت الحرب الأهلية الاسبانية لم تعد الحكومة الانجليزية في حاجة إلى إبتكار ونسج قصص التعذيب ، لأن الحقائق والأحداث كفتها مؤونة هذا الجهد ، لأن قذف طائرات النوار للمدن المفتوحة العزلاء بالقنابل أفزع العالم ، وهاله الدمار الذي حلّ بكبريات المدن مثل برشلونة وفالنسيا وصغرياتها مثل ليريدا سواء بسواء ، مع انه كان قد ألف تدريجياً أعمال العنف والتخريب .

وأحسن مثل لتطبيق الأساس الثالث من أسس الدعاية وأعني به ضرورة توافر بذور الحق فيما يذاع من دعايات كان في الحملة التالية لحرب العالمية الماضية التي شنتها المانيا ضد تشيكوسلوفاكيا في بين مايو عام ١٩٣٨ وسبتمبر من ذلك العام . جأر الألمان بالظلم الصارخ الذي يقع على السوديت الألمان والحيف الذي يحل بهم من جراء قيود اقتصادية ثقيلة فرضت عليهم ، وبسبب وعود قطعها الحلفاء على أنفسهم للسوديت ، ولم يفوا بها ، عند ما تكونت

الدولة التشيكوسلوفاكية الحديثة . في خطاب لورد « روسيمان » الذي بعث به الى رئيس الوزراء في ٢١ سبتمبر بعد عودته من براغ لخص فيه الموقف في هذه الكلمات : « اني أعطف عطفاً كبيراً على قضية السوديت ، فاذ من الموجع أن يرى الانسان أجنبيًّا يتحكم فيه ، ولقد غادرت هذه البلاد وبنفسي الأثر الذي انطبع فيها بأن الحكم التشيكي في مناطق السوديت في العشرين سنة الأخيرة كان طابعه التجرد من اللباقة والذوق السليم وخلوه من حسن الإدراك وروح التسامح وحسن تقدير الأمور ، رغم انه من المقطوع به انه لم يكن جائراً أو ظالماً بالفعل بل بكل تأكيد لم يكن ارهابيًّا . وكان التذمر يتغلغل في نفوس الألمانيين والاستياء يتأصل فيهم ويدفع بهم نحو ثورة كان من المستحيل تفاديها » .

ولما تجمعت هذه الحقائق في قضية السوديت تناولتها وزارة الدعاية الألمانية وبدأت بها عملها . وقد أفاد منها خارج المانيا ، أولئك الذين يشاطرون الألمان عواطفهم ليؤكدوا عدالة مطالب السوديت الألمان . أما في داخل المانيا نفسها فان طوفاناً من صارخ السباب فاض ليغرق تشيكوسلوفاكيا . ولما أرادوا تصوير الشرور والمساوىء أضحى الرئيس « بنيش » هدفاً لهجمات لا تعرف هوادة وحملات لا تعرف رحمة . ولما بلغت الحملة ذروتها رمى الألمان المسؤولون الجنود بكل أنواع النقائص والشرور ولم يستثنوا منها إلا أكل اللحوم البشرية .

والمتشيعون لهذه الحركة خارج الريخ يظنون ان هذا العباب الجارف من السباب والشتائم مصدره الحفيظة المتأصلة في النفوس ، ولكن من وجهة نظر دعاة النازيين ، لم يكن هو الغاية التي يعملون لها . فقد كان الغرض الذي يرمون اليه هو إلهاب ثورة السخط والغضب في نفوس الشعب الألماني لينيروا ثائره ضد التشيك ، وإعداده لتسير خلف الفوهرر في أية حركة يأتيها وأي اتجاه يتبعه ، بغية انقاذ ذويهم السوديت .

وتمكن الدعاة بفضل الرقابة الشديدة في المانيا على كل صور التعبير عن الرأي ، من الوصول بدعاياتهم الى أقصى حد مستطاع ، وان يقالوا ما شاءت لهم المقالاة وان يسرفوا ما شاء لهم الاسراف عامدين متعمدين وهذا غير متيسر أبداً في أية دولة ديموقراطية .

٤ — سحر الاسلوب

والركن الرابع من أركان الدعاية هو صياغتها في « صلوجن »

أعني تصوير حالة قائمة أو حركة من الحركات الشعبية في جملة قصيرة سهلة قوية التعبير عذبة

تصور في كلماتها القليلة المراد أبرع تصوير . فهو الايحاء في أقوى صوره في شئون الدعاية. وأسمح من البدهي أن القول بعدم فائدة التقارير المطولة في حملات الدعاية لغو ، ومع ذلك فكثيراً ما ينسى أو يتناسى الدعاة هذه الحقيقة فتمتلىء سلال المهملات في دور الصحف كل يوم بمقالات فياضة مطولة لم يفطن الذين أنشأوها أن ما عظم عناؤه لديهم قليل الأهمية أو عديمها عند بقية المجتمع، وأن صفوراً قليلة تسترعي انتباه الجمهور خيرٌ من مقالات طوال تطوى كما نشرت لا يسمع بها أحد . وحتى لو حظيت المقالات المطولة بالطبع والنشر والاذاعة تظل عديمة القيمة لأن القارىء العادي لا يطيق الدخول في مجادلات ومناقشات طويلة اذ لا صبر له عليها فهو يعوزه الوقت الكافي والرغبة الأكيدة حتى يستوعب ما جاء فيها . ولذا فالأخبار في الصحف تقدم له سائغة سهلة التناول ، في عبارة قصيرة جلية ، لا التواء فيها ولا غموض . واذن فلكي ينجح الداعية في دعايته يجب أن ينهج نهج الصحفي في تقديم أخباره . والسلوجن يرفع الداعية الى أسمى درجات النجاح بأقل عدد من الكلمات ، فهو له أثره في النفوس وسحره في العقول ، ولذا وجب أن يكون بسيطاً خالياً من التعقيد بليغاً فصيحاً ، ذا رنة مسرحية في الأذن . وفي عصرنا الحاضر عند ما تتدافع الجماهير نحو المعارك الانتخابية يستعملون « سلوجن » كسلاح يظفر به على التأييد والنصر للسياسة التي يتبعونها ويدعون اليها .

هذا القرن من الدعاية ليس بجديد فان من أشهر ما صاغ الكتّاب في ذلك المضمار هو « السلوجن » الذي دبجته يراع الكاتب الروماني « كاتو الكبير » عندما اصطدمت قوة روما الناهضة بمصالح امبراطورية قرطاجنة التجارية ، وكان كاتو يختتم كل خطاب يلقيه بالكلمات : « يجب تحطيم قرطاجنة » . ومناداته دائماً بوجوب تدمير قرطاجنة جعلت عبارته تعيش السنين الطوال حتى بعد أن اكتسحت الرمال مصدر الكراهية وعاصمته .

« حرية ، مساواة ، مؤاخاة » كانت أقوى « سلوجن » اكتسحت به الثورة الفرنسية الكبرى أوربا من أقصاها الى أقصاها ، وقد وجه الى العمال نداء لا يقل عنه أثراً وقوة : « اتحدوا أيها العمال فليس لديكم ما تفقدونه إلاّ الأغلال » .

وفي بعض الأحايين يتقدّم العدو « سلوجن » من قول عدوه عند ما قال بيتان هولوج

وزير الخارجية الالمانية : « تلك القصاصة من الورق » وهو يقصد الخط من قدر المعاهدة التي تضمن حياد البلجيك تلقفها الحلفاء ليشهروا بألمانيا الخائنة وليقف العالم أجمع على إجرامها . وكما يقود سلوجن الى نصر مبين يؤدي أيضاً الى هزيمة نكراء قاضية . ففي عام ١٩٢٩ وبعد أن صلح المحافظون في انجلترا خمسة أعوام في دست الحكم وبعد أن حشدوا جيشاً جراراً من الناخبين يخوضون به خضم المعركة الانتخابية الحامية تفرقوا متجولين في المدن والقرى يدعون لأنفسهم ويروجون لحزبهم وشعارهم «سلوجن» : السلامة أولاً . فكان خطأ فاحشاً دفعوا ثمنه غالياً ومنيت دعوتهم بالفشل وباءوا بالهزيمة .

وتجنيس الحروف في أوائل الكلمات المتتابعة والسجع وإحكام العبارة وحسن اختيار الحروف والكلمات في تأكيد الحقائق عناصر ومقومات ضرورية في بناء كل سلوجن .

والمبالغ الجسيمة التي ينفقها المعلنون التجاريون ثمناً لسلوجن يدعون به لبضاعة أو سلعة برهان قوي على ماله من قيمة .

ومجال السلوجن أوسع وأرحب في دائرة النشاط السياسي حيث يجد صدى عاطفياً تتجاوبه أنحاء البلاد عند ما لا تكون في الميدان مشاكل تجارية تقلل من شأنه .

٥ — نحو الهدف

والأصل الخامس من أصول الدعاية وجوب تسديدها الى هدف معين

خير مثال لتطبيق هذا الأصل وجوب تضمنه دراسة دقيقة لعادات وخصائص وميزات كل فرد يراد التأثير فيه في حال انقادة من رجال الصف الأول المجهود ضروري ما في ذلك شك وفي أثناء احتدام معركة الدعاية الحامية التي سبقت دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في جانب التحالف الثلاثي : بريطانيا ، فرنسا ، ايطاليا ، في الحرب العظمى الماضية كان من الضروري للذين يعارضون مبدأ الاشتراك في الحرب أن يؤثروا في قادة الحكومة وقادة المعارضة على حد سواء وضرب البريطانيون على وتر حساس هو المبدأ السامي الذي نادى به الرئيس ولسون (مبدأ حق تقرير المصير للدول الصغيرة) نادوا بأن الحلفاء يخوضون المعركة دفاعاً عن الديموقراطية ، وفي نفس الوقت وكروا اهتمامهم في تيودورو روزفلت إذ تحققوا حيداً انه هو وحده الذي يستطيع الاحتفاظ بمن هم أكثر تطرفاً من أنصار العزلة والحيلولة دون تحولهم دفعة واحدة وفي فجأة مفاجئة نحو المعسكر المؤيد للألمانيين .

أما في الشؤون السياسية فان سير غور الرأي العام مهمة شاقة عسيرة فالمعروف أنها دائماً ترشد أمين تجيء أحايين تكون الصلة بين الجماهير وبينهما على غير ما يرام ، فلا تعبر تعبيراً صادقاً عن حقيقة الشعور السائد في البلاد ومعرفة اتجاهات الشعب وميوله عملة ذات قيمة للداعية فهي تغذيه بالمساعدة وتمده بالعون الذي يمكنه من إدراك مدى الحماس الذي استطاع أن يبثه في نفس جمهوره في كل مرحلة من مراحل الحملة .

فالداعية ، إذن ، يجب أن يتوقع كثيراً من الاخطاء وان لا يضيق بحال الشك والتردد إذا طالت ما دام الأفراد مختلفين اختلافاً بيناً كل عن الآخر فيما بينهم . ويمكن الداعية أن يتثبت من أن باعثاً من البواعث يولد رد فعل خاص كذلك إذا حشد المجتمع ونظم طبقاته تنظيماً ثابت القواعد والأركان . وجدير بالذكر ان في الدول الفاشستية وروسيا الشيوعية مثل القائمون بالأمر كل جهد لحسر الشك في دائرة ضيقة بجمع طبقات الأمة في حشود متشابهة قريباً بعضها من بعض .

والداعية الذي يعمل وينقصه ما يساعده على إزالة الشك من النفوس جهده ضائع إذا حاول التأثير في جماعات بالذات لأن الجماعات تلبي نداء الداعية إذا ما كانت من طبقات اجتماعية واحدة أو منحدرة من جنس واحد . وتكون تلبية نداء الداعية صورة مشابهة للدوافع التي دفعت اليها . وتاريخ الدعاية منذ حرب ١٩١٤ — ١٩١٩ يفخر بأمثلة هذه السياسة ، ففي بداية الحرب الماضية وقبل أن تتحول كراهية بريطانيا لألمانيا الى طاقة جياشة كامنة عاملة قوية من البغضاء والحقد والسخرية لتستعين بها قلوبهم كتبت مسرحية قوية تصور ما أصاب بلجيكا من جنك وما حل بها من شقاء بعنوان « بلجيكا الصغيرة البائسة » أو ما زال يصرياً من هوان في رواية « صربيا المجاهدة النعسة » . واستغل الداعية عاطفة العطف على المنكوبين وهي عاطفة تتأصل في نفوس البريطانيين ، لتدعيم دعوته ونجاحها

ويمكن ، طبعاً ، استخدام أي وسيلة من وسائل الدعاية في شن هجوم على جماعة أو هيئة معينة ، ولكن بعض هذه الوسائل تكون قليلة النفع بطبعها في حالة نمثل جهداً في إعدادها . فالزاديو مثلاً نفعه عظيم الأثر حقاً القدرة على تنفذ الدعاية الى مسامع الأقطار عبر البحار ، بينما تقل فائدته في حالة غرضها وهدفها التأثير في طبقة اجتماعية معينة في الداخل

وتعامل على أنها متميزة عن باقي المجتمع . والأعلام السمائية مثلها مثل الراديو تقيدها نفس القيود وتقتصر على نفس التأثير بينما الصحف الاقليمية المحلية تسد هذا النقص . ولكن كل الموضوعات ذات الصبغة الوطنية يراعى في تصويرها الناحية القومية حتى تثمر الثمرة المرجوة عند الانتفاع بها باستخدامها على الشاشة البيضاء وصيلة من وسائل الدعاية في أماكن مختلفة . ومهما كانت الأوضاع فالصحافة اليوم تسد كل نقص فتقدم الصحف والنشرات الدورية والمجلات المتعددة الاختصاص والمتنوعة الاتجاهات ، مادة خصبة الى الجماعات والطبقات حتى الصحف التجارية المحضة والمجلات الأسبوعية وغيرها . . . وغيرها لها أسواقها التي تزدهر فيها وتروج وتحيا .

٦ — استئصال شأفة الشك

والأس السادس من أسس الدعاية اخفاء الدافع اليها

يعتبر بعض الكتّاب هذا العنصر الدعامة الأساسية في الدعاية « غورك » مثلاً يصل الى التعريف التالي « الدعاية حملة تخفي المعين الذي منه تنبع وتستتر الدافع اليها أو كليهما معاً ، والغرض منها الوصول الى غاية معينة واصابة هدف خاص بالتأثير في الرأي العام وإثارته » . والدعاية سافرة أو مقنعة كما أسلفنا فالدكتور جوبلز يلقب رسمياً بوزير الدعاية وتنوير الرأي العام فهو لا يخفي شيئاً من طبيعة العمل الذي يقوم به في الدولة النازية ويعلن على العالم أجمع أن النظام الذي ارتضته المانيا لنفسها لن ينحرف يوماً عن الطريق المثلى التي اختطتها وسلكتها ، والذي ثبت صلاحه ونجاحه على الأيام . ومن وجهة نظره أن ما يميز الدعاية في دولة ديموقراطية عنها في المانيا أن في الأولى يرسم الرأي العام السياسة ويوجه الدولة بينما في المانيا الدولة هي التي ترشد الرأي العام وتوجهه وترسم السياسة التي يجب أن يتبعها ولا يمكن الاعتماد على الدعاية السافرة أو المباشرة فقط حتى ان دكتور جوبلز السافر لا يستطيع ذلك واتخذ احراق الريشستاغ المبيت موعزاً لدعاية مستترة القصد منها التشهير بالشيوعيين واظهارهم بمظهر المجرمين أمام العالم .

وفي أكثر الدول طغياناً ، وعندما يرغمت الأيام والأحداث على أهمية زوال الشك من النفوس الأمر الذي ينتج من الحقيقة الواقعة والعقيدة الراسخة في الأذهان أن الدعاية اذا

لبست ثوب التفكير انسحت دائرة النقاش حولها وغدت موضع بحث وتعليق وبذلك تزول الحواجز التي تفصل الداعين عن الجمهور وتنتفي الشبهات التي تحيط بالدعاية وموضوعها وصدق القارىء العادي كل ما يقرأ ورجل الشارع كل ما يسمع . فاذا دبجت يراع رئيس التحرير ، في صحيفة حازت ثقة قرائها مقالاً افتتاحيًّا في فوائد الكهرباء كان مقاله أقرب الى قلوب القارئين من مقال في نفس الموضوع يكتبه بائع محترف في صفحة الأخبار المحلية لأن جمهور القراء يفطن بالغريزة الى أن رئيس التحرير منزه عن الأغراض لا يرمي الى هدف سوى النفع العام .

وفي مختلف البلدان والأمصار تنفق الأموال الطائلة لشراء الدعاية المقنعة والانتفاع بفوائدها الجليلة . نظمت في الحرب الماضية حملة ضيقة النطاق ترمي الى الحض على مصادرة الأملاك والحيلولة دون تهريبها فبذل الألمان في دعوتهم أربعين ألفاً من الجنيهات على جماعات الصحف الصغيرة التي تصدر بلغات أجنبية في أمريكا وكان نداؤها قاصراً على الترويج للمبدأ في ذاته دون ذكر لألمانيا على الاطلاق ، وكانت الكتابات في الموضوع عامة وتهيب بالشعب أن يساعد على تخفيف ويلات الانسانية ولا يعمل على تدمير الحياة والمدنية بل يسعى جاهداً على حفظهما وبقائهما .

وكثيراً ما تطغى الداعية السافرة على الدعاية المقنعة أو هذه على تلك في حملة واحدة أو تشوكل منهما في مرحلة من مراحل الحملة . ولنضرب لذلك مثلاً تمثل دولة أجنبية في لندن يريد عقد قرض لبلاده . فهو يعمل أولاً على أن تنشر فقرات من الأخبار الخارجية في الصحف البريطانية تشيد بتقدم تلك البلاد وثبات مركزها المالي حتى اذا ما اتجه الرأي العام الى هذه المزايا وتنبه الناس اليها أعلن عن القرض صارخاً صريحاً . ونجاح الجمع بين عنصري السفور والحجاب في الدعاية يتوقف كثيراً على الوقت المناسب للتحول من ظلام السرية الى نور العلانية .

ولقد أقامت مؤسسات الفنائر وعتاد الحرب في السنوات الحديثة في هذا النوع من الدعاية المقنعة وأشهر مثال لها عرف حتى الآن يختص بمؤتمر نزع السلاح البحري الذي انعقد في جنيف عام ١٩٢٧ وبعد أن مضى عامان على انعقاد هذا المؤتمر فاض مستر هيرد

الاث مؤسسات كبيرة لبناء السفن في الولايات المتحدة يطالبها فيها بأموال طائلة لأنه قد أدى لها خدمات جليلة بسعيه على انحناء المؤتمر في تحريمه الذي كان يريد الدول البحرية فأخضع بناء السفن لمبادئه الخاصة به ، دون النظر الى المؤتمر وما يبغي . وقد تمكن شيرد من هذا لأنه كان مراسلاً لاحدى الصحف الصفراء الأمريكية فنظم الدعاية لحاربة بريطانيا وأعدّ العدة لذلك وتمّ له ما أراد بمساعدة الأخبار التي كان يرافي بها الصحف الأمريكية القائمة الصيت . وقد أميط اللثام عن هذه المؤامرة المدبرة عندما أمر الرئيس هوفر بتحقيق على يد النائب العام للكشف عن هذه الفضيحة .

والعاملون على اثارة المخاوف والقلاقل الدولية لهم صيت جماعات ناجحة كانت تعمل رويداً رويداً قبل الحرب الاخيرة ، وقامت تدعو للسلام قبل هذه الحرب ، وضمت أفواجاً من محل مختلفة وهيئات سياسية واجتماعية متباينة ، ولكن يجمعها كلها غرض واحد مشترك ومن هذه الجمعيات : « اتحاد عصبة الأمم » واتحاد المتكلمين بالانجليزية » وتعمل كلها في وضح النهار وغايتها نشر السلام .

واتحاد عصبة الأمم جمعية تأسست عام ١٩١٨ وبلغ عدد أعضائها قبل الحرب الاخيرة الرحى ألف ألف وكانت مسئولة عن أعظم حركة للدعاية قامت بها جمعية للسلام واشتهرت بالاستفتاء للسلم عام ١٩٣٤ — ١٩٣٥ ، ولقد قامت ضجة كبيرة حول هذا الاستفتاء ووصفته بعض الأحزاب بأنه دعاية مقنعة ماهرة ضد الحكومة وقالت أحزاب أخرى أن الأسئلة التي وردت في الاستفتاء لا يمكن الاجابة عليها عدا النافي منها وأعلن سير أوستن تشمبرلن ان المحور الذي قام المقترعين للتصويت عليه هو « هل أنت في جانب السلم أم جانب الحرب ؟ إذا كنت تريد السلم فاقترع بنعم ، لأن الاقتراع بلا معناه تشرب الحرب » . فكان هذا ايحاء للاقتراع في جانب السلم

٧ — خطاب لويد جورج في يوم السبت من كل اسبوع

وتقسيم الوقت أو اختيار الزمن هو الأصل السابع من أصول نجاح الدعاية

في كل حملة من حملات الدعاية يجب على الداعية ألاّ يضيع فرصة استغلال أي حدث من الاحداث تكون لها أهميتها التي لا يحسن به تناسيها أو تجاهلها بل يجدر به الاستفادة

منها قدر المستطاع لتأييد دعوته والعمل على نجاحها حتى ولو تأكد ان هذا الاتجاه يتعارض مع توزيع الزمن الذي جعله أساساً مقدساً لعمله . ومن الحكم المأثورة التي لها قيمتها في النشر والاذاعة أن حشد الجهود وتجنيد الكفاءات واعداد العدة واتقان العمل ثم الهجوم بحملة قوية خاطفة لا تترك ثغرة تنفذ منها قوة مضادة أو نقطة ضعف تتداعى عند أول صدام هي خير الطرق وأنجع الوسائل لكسب المعركة ، ثم يعقب هذا الهجوم القوي وفي فترات قصيرة متلاحقة تذكرات بموضوع الدعاية حتى لا يزول من الذاكرة وشيكا ، كما يجب أن تزاد هذه التذكرات قليلاً قليلاً كلما تقدمت الحملة في الزمن ويراعى في كل ما قصد به التذكرة والتركيز أن يكون قويًا فعالاً ، وان يكون وحدة في سلسلة متصلة الحلقات

واذا ما وقعت أحداث غير منتظرة وتقتضت احتمالات جديدة أمام الداعية فلا ضرورة لتطبيق القواعد والقوانين وما عليه الاّ أن يتحين الفرص ولا يدع فرصة تفلت من يديه حتى يجني ثمار ما غرس . ويتشعب هذا المبدأ الى شعب متعددة . فالظروف هي التي تملي علينا اختيار الوقت الذي يجب أن تطلق فيه قذيفة الدعاية الأولى . فكانت مباغتة لويد جورج أن يلقي خطاباته المهمة بعد الظهر من يوم السبت في كل أسبوع — ونهج هتلر نهجه فيما بعد — وبهذه الوسيلة يمد المتكلم صحف المساء بأخبار حديثة وتجيء صحف يوم الاحد بتفصيلات وافية لهذه الأخبار وتعليقاً عليها . أما صحف الاثنين الصباحية فتكرس مساحات أوسع لتعليق أوسع وأبعد مدى ، كما تعطي سرداً مفصلاً لما أحدثه الخطاب من رد فعل في الصحف الخارجية .

وفي أثناء الحرب الكبرى الماضية عني القائمون بأمر الدعاية البريطانية عناية فائقة بمبدأ الزمن وتقسيمه تبعاً للأحداث والخطوب فكان مراقبو النشر يمنعون كل خبر سيء ، مثل اغراق طرادة ، حتى يحرزوا نصراً في ميدان آخر أو يقع ما يدعو الى الابتهاج والاستبشار ويبعث على المرح والتهليل وحينئذٍ لا بأس من اعلان ما سبق ان حظروا لأنه سيختفي حتماً ولا يؤبه له بجانب ضوء النصر الساطع . ويصرح ويروك في هذا الصدد أن الأوامر البريطانية الخاصة بمشاكل العصر البحري روعي فيها التوقيت الدقيق فطبع التصريح الآتي

المتعلق بجعل القطن بضاعة قابلة للمصادرة كغيرها دون قيد أو شرط ، جاء في نفس اليوم الذي كانت فيه الصحافة الأمريكية في حالة انفعال شديد بسبب اغراق البارجة « لوابك » فأبان هذا التصريح أن الألمان الأشرار أحرزوا قصب السبق واتخذوا اجراء اقتصاديًا كان من شأنه أن تأثر النجاح الأمريكي ولحقت الحقوق الأمريكية أضرار جسيمة .

ويقوي هذا المبدأ ويؤيده ادراك ما للكتمان من فائدة في حملات الدعاية فغالباً ما يكون نجاح الداعية ليس لمعرفته فقط متى يتكلم بل متى يجب أن يصمت لأنه عند ما تكون لدى خصومه قضية وطيدة الاركان مؤيدة بالأسانيد والحجج تلعب دوراً هامًّا لأنهم يفسرونها تفسيراً يتمشى ومبادئهم التي يعملون لها ويساعد على نجاح الحرب التي يخوضونها فاذا لم يقتنع الجمهور بما أدلي اليه من تفسير ظلت القوة في القضية نفسها ولكن تنتقل الى المعسكر المعادي . وفي هذه الحال فان الطريق السوي أن يستعد الداعية ويتنظر حتى ينسى الجمهور ويستعجل الداعية لسانه بحملات هجومية مختلفة كل الاختلاف بعيدة كل البعد عن الموضوع الأصيل ولا تقتصر فائدة هذه الخطة على توجيه الرأي العام وجهة أخرى بعيداً عن ميدان النضال الحقيقي حيث تحرج الموقف وانسدت عليه السبل ، بل أيضاً يمنع العدو عن متابعة نصره بارغامه فجأة من غير أن يتوقع ان يقف موقف الدفاع وهو موقف يظهر ضعفه وحرجه .

List of Books

Propaganda By Leonard W. Doob (1935)

Secrets of Crewe House By Sir Campel Stuart (1920)

Propaganda By Edward L. Bernays. New Work. (1928)

Propaganda By Richard S. Lambert

Propaganda Boom By A. J. Mackenzie (1938)

Through thirty Years By F. Wickham Steed (1924)

فك الاغلال

بحث في الثقافة التقليدية وعلاقتها بالتربية القومية

بقلم اسماعيل مظهر — ظهر مع مقتطف يناير ١٩٤٦

الالوهية والفكر

بحث في العقائد الدينية

مترجم بقلم اسماعيل مظهر عن لورد بلفور : وهو بحث مثبت للالوهية فانه لما يدعيه بعض الماديين من ان في المادة الطبيعية قصداً اوما يشبه القصد . ظهر مع مقتطف فبراير ١٩٤٦

الفريد دلا موسيه

شاعر الحياة والالم

بقلم الاستاذ صلاح الدين الشريف ظهر مع مقتطف مارس ١٩٤٦

الازهر بين الماضي والحاضر

بحث في تاريخ الازهر الشريف وتطوره ومنزلته العلمية والدينية واتصاله بحياة الاسلام من قلم الاستاذ منصور علي رجب المدرس بكلية أصول الدين مع مقتطف ابريل ١٩٤٦

سبينوزا

حياته وفلسفته — عرض وتحليل — تأليف هنري سرويا —

ترجمة سليم سعده ظهر مع مقتطف مايو ١٩٤٦

موسكو — برلين — لندن

تاريخ سياسي لفترة ما قبل الحرب العالمية الثانية

بقلم حسام الدين حفني ناصف — ظهر مع مقتطف يونيو سنة ١٩٤٦

فلسفة التفاحة

أو جاذبية نيوتن : بقلم نقولا الحداد : مقتطف يوليو ١٩٤٦